

## الفصل الأول

### الحياة الاجتماعية وعوامل الصراع الطبقي

- خلفية اجتماعية عامة عن العصر العباسي الثاني .

- عناصر السكان .

- طبقات المجتمع .

- الإقطاع وقوى الإنتاج .

إن هذا الفصل يتحدث عن الشق الأول من الصراع ألا وهو الصراع الاجتماعي، وقد أولينا هذا الفصل عناية كبيرة بما يتناسب مع أهميته ؛ لأن دراسة أحوال المجتمع في هذه الفترة خصوصاً في العصر العباسي الثاني وفي إقليم خراسان كانت هي حجر الأساس لمعظم الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي عامة وخراسان خاصة، ونحاول بقدر ما يمكن أن نبرز عوامل هذا الصراع وما أفضى إليه ؛ لذا فلنبداً بخلفية عامة عن الحالة الاجتماعية في العصر العباسي الثاني.

### أولاً: خلفية اجتماعية عامة عن العصر العباسي الثاني:

يقصد بالاجتماعية هنا كل ماله علاقة بتقسيم المجتمع إلى طبقات مختلفة والبحث في الفروق في مستوى المعيشة والرفاهية بين هذه الطبقات، والحق أنه طالما وجدت شرائح متمتعة بالامتيازات معفاة من التكاليف المادية بينما الطرف الآخر من المجتمع طبقة دنيا تكدح وتشقى وتقع على كاهلها أعباء الضرائب والمغارم الأخرى، كان ذلك لاشك من دواعي طرق الفساد والعلّة إلى أحوال المجتمع<sup>(١)</sup>.

يرى أحد الباحثين<sup>(٢)</sup> أن ظاهرة التمايز الطبقي والتباين الاقتصادي قد أصبحت لافتة للنظر منذ منتصف القرن الثالث الهجري وأن سوء توزيع الثروة لم يعد أمراً محتملاً، فقد شكا الفقراء علانية وأظهروا تذمرهم منه مرات كثيرة دون جدوى وأمام هذه المتناقضات الاجتماعية الحادة التي أفرزها النشاط التجاري والصناعي الهائل في الدولة العباسية تمثلت في حركات ثورية واسعة أعاققت النشاط التجاري واستهدفت كيان الدولة العباسية، فما كان إلا أن احترف بعضهم للصوصية سبيلاً غير مشروع لحق

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٤١٠، ٤١١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط مصر ١٣٤٨هـ، ج ٨، ص ١١٢، ١١٣؛ عبد الفتاح السرنجاوي، الخلافة العباسية (النزعات الاستقلالية)، ط ٤ دار الكتب- القاهرة ١٩٤٥، ص ٤٧.

(٢) محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعبارين في التراث العربي، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨١م، ص ٨٨.

هذا فضلاً عن الفوضى الإدارية العارمة التي عمت أرجاء الخلافة ولاسيما في عهدي الواثق (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤١- ٨٤٦م) والمتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦- ٨٦١م) حيث التأييد والإنعام غير المحدود من الواثق على الأتراك من إقطاعيات واسعة ونفوذ واسعة بل واستخدامهم في قمع معارضي الخلافة مثل ما حدث مع "وصيف" التركي أحد قواد الجيش قد قام عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م بمحاربة الأكراد في ناحية أصفهان والجبال وفارس، فأجازه الواثق بـ ٧٥ ألف دينار، ونظام المصادرة الذي ابتدعه خليفته المتوكل حيث بدأ عهده بمصادرة كبار الكتاب والعمال لينفق على جيش الخلافة وقواده الأتراك، وهذا بالطبع أدى إلى تفسخ النظام الإداري بالدولة<sup>(١)</sup>.

نتاج ذلك أن حدثت ثورة من أكبر الثورات الاجتماعية في تاريخ الخلافة العباسية هي ثورة "الزنج" وهم طائفة من عبيد أفريقيا أثاروا الرعب في حاضرة الخلافة العباسية بغداد حيث مسرح هذه الثورات الجامحة العنيفة التي دامت أكثر من ١٤ سنة بالمستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاريين من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم ولاسيما أنهم كانوا لا يتقاضون من الأجر شيئاً بل كانوا يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاجتماعية-الاقتصادية السيئة على أتم الاستعداد للخروج على الخلافة نفسها، وقد قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسي يدعى "على بن محمد" وهو من أهل قرية "ورزنين" \* من ضمن أعمال الري ادعى أنه من ولد "على بن زين العابدين بن الحسين بن على"، لكنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعي<sup>(٢)</sup>، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج<sup>(١)</sup>.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١١، ص ١٨، ١٩، ٣٠.  
 \* ورزنين: هي قرية من أعيان قرى الري وهي أشبه بالمدينة . (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٧١)  
 (٢) المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين، ط الثالث السعادة- مصر ١٩٥٨م، ج ٤، ص ١٩٤

وقد نظر بعض المؤرخين<sup>(٢)</sup> إلى ثورة الزنج باعتبارها ثورة اجتماعية كبرى استهدفت تحرير الرقيق من الزوج وهي تمثل أول صرخة اجتماعية خطيرة في العصر العباسي الثاني ضد الإقطاع السائد، إلا أن فشلها ناجم عن خلوها من برنامج اجتماعي شامل، فضلا عن ضراوة النظام العباسي في قمع معارضيها أفضى إلى فشل تلك الثورة<sup>(٣)</sup>، إلا أن بالرغم من فشلها فقد استطاعت تلك الثورة بث الرعب والخوف في قلب الخلافة وحكومة العسكر ومن ضمن إشارات الطبري<sup>(٤)</sup> إلى ثورة الزنج أنهم في عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م هاجمت جماعة منهم إحدى الموانئ وأخذوا أربع سفن فيها طعام وانصرفوا، بل واستطاعوا الخروج بالثورة خارج نطاق مدينة واسط إلى خوزستان<sup>(٥)</sup>، رافعين شعارات في المساواة والأخوة ذات طابع إسلامي عام - وليس مذهبا- مثل "إنما المؤمنون أخوة" حيث تمكنوا من تأسيس مدينة صغيرة تسمى المختارة\* التي أصبحت موئلا لتجميع المهمشين من سائر أرجاء العراق<sup>(٦)</sup>.

ولأنه لا يمكن دراسة الواقع الاجتماعي بمعزل عن الوضع الاقتصادي، فنحاول إلقاء الضوء على وضعية الأرض الزراعية والإقطاع ؛ لأنهما يمثلان حجر الزاوية في النظام الاقتصادي.

وقد ذهب بطروشوفسكي<sup>(٧)</sup> إلى القول بدخول الخلافة منذ نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع مرحلة المجتمع الإقطاعي المتكامل الذي اتسم

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)، ط . دار الجيل- بيروت، مكتبة النهضة المصرية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ج ٣، ص ٢١٧

(٤) الطبري، المصدر السابق، ج ١١، ص ١٧٤؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٧٢؛ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ط بغداد ١٩٤٥م، ص ٢١

(١) محمود إسماعيل، المهمشون في التاريخ الإسلامي، ط الأولى- دار رؤية ٢٠٠٤م، ص ٦٩

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ٥٤٥

(٣) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط الخامسة دار بيروت ١٩٩٨م، ص ٢١٩

\* المختارة : هي محلة ببغداد بين باب أبرز وقرأح القاضي والمقتدية بالجانب الشرقي (أنظر:

البغدادي، مرصد الإطلاع، ج ٣، ١٢٣٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٧١)

(٤) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص ٦٧-٦٨

(٥) الإسلام في إيران، ترجمة: السباعي محمد السباعي، ط الثانية القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٤٧، ١٤٨.

بزيادة مساحة الأراضي الخاصة على حساب أراضي الدولة، وزيادة مساحة الأراضي المخصصة لأفراد الجيش، بجانب الكثير من أبناء القرى إلى مزارعين في الأراضي الإقطاعية.

وكانت الضياع بالإجمال قسمين: الضياع العامة وهي ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة، والضياع السلطانية وتفرعت منها أنواع وهي:

١- الضياع الخاصة: هي ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيها أحد.

٢- الضياع المستخدمة: وهي تابعة للضياع الخاصة.

٣- الضياع الفراتية: أي الواقعة على ضفاف الفرات وبلغ خراجها عام (٣٠٦هـ/٩١٨م) ١٢٦، ٦١٧ ألف دينار، وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والأهواز وأصبهان<sup>(١)</sup>

نتج عن كثرة تلك الضياع فوضى كبيرة أدت إلى تدهور نظام الري، الأمر الذي أدى إلى زيادة في ظلم الجباة والملاك للفلاحين وإلى انتشار الفقر والتذمر العام، ثم إن ظلم الجباة دفع الفلاحين إلى إلقاء ضياعهم إلى الشخصيات الكبيرة فأدى ذلك بمرور الزمن إلى توسع وانتشار الملكيات الفردية الكبيرة على حساب الزراعة المتزمرين<sup>(٢)</sup>.

وقد ذهب آدم ميتز<sup>(٣)</sup> في نفس الاتجاه قائلاً بأن الإقطاع في الخلافة العباسية كان ضرباً هاماً من ضروب تملك الأرض الباهظة، مما أدى إلى ظهور الطبقة الثرية المترفة بعد تكديس رؤوس الأموال.

مما كان له أبلغ الأثر في قيام بعض ثورات الشيعة في المشرق، أهمها تلك التي أسست كياناً شيعياً مستقلاً في طبرستان هي الدولة الزيدية، عندما قام الخليفة المستعين بالله (٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م) بإقطاع محمد بن

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٣

(٢) جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ط دار الهلال- القاهرة ١٩٦٨م، ج ٢، ص ١٢٧؛ عبد العزيز النوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٨

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد أبو ريدة، ط ٣ القاهرة ١٩٥٧م، ص ١٩٤

طاهر أرضاً خصبة من أراضي الثغر في طبرستان فثار أهل الديلم واستعانوا بالحسن بن زيد عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م، وكان ذلك السبب الرئيسي في قيام الدولة الزيدية كما سيأتي ذلك تفصيلاً فيما بعد<sup>(١)</sup>.

فانعكست تلك الحالة السيئة بدورها على الأوضاع السياسية التي بلغ من ترديها ظهور ما يسمى بمنصب "إمرة الأمراء" وهو أول ما ظهر في عهد الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٣-٩٤٠م)، وسبب ظهور هذا المنصب هو فقدان الخلافة المقدرة والسيطرة على نفوذ الوزراء وكثرة الثروات الأمر الذي جعل الخلافة عاجزة عن القيام بموارد الدولة- لاسيما ثورة الزنج ومن بعدها ثورة القرامطة التي سيأتي ذكرها بالتفصيل - لذلك كانت السلطة الحربية أهم ما يمكن للخلافة أن تعتمد عليه، فأنشأ منصب أمرة الأمراء وأول من تولى هذا المنصب "ابن رائق"<sup>(٢)</sup> وهو أكبر القواد العسكريين وكان والياً على واسط والبصرة، فاستبد ابن رائق بالأمور ولم يبق للوزير سوى الاسم حيث فوض إليه الخليفة جميع السلطات العسكرية والإدارية<sup>(٣)</sup>، بل أمره الخليفة بأن يخطب له على جميع المنابر<sup>(٤)</sup>.

وبالتالي انعكست تلك الأوضاع الاجتماعية-الاقتصادية-السياسية على حالة المواطن نفسه، فقد أورد أحد المؤرخين<sup>(٥)</sup> وصفاً لحالة الغلاء- بالرغم من المبالغة نوعاً ما في الوصف- التي عمت في سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م حتى

---

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ط ٣ دار الكتب العلمية- بيروت ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج ٦ ص ٢٣٣؛ الصابئ: المنتزع من الجزء الأول من التاجي في أخبار الدولة الدبلوماسية، تحقيق: محمد صابر خان، ط ١ الأولى طهران ١٩٧٦م، ص ١١؛ مجهول: العيون والحداث في أخبار الحقائق، ط مكتبة المثنى- بغداد، ج ٣، ص ٥٧٠.

(\*) ابن رائق: فقد قدم دمشق عام ٣٢٧هـ وقد ولاه الخليفة المقتدى بالله أمر دمشق وآخر منها بدر بن عبد الله الإخشيدى ثم توجه إلى مصر وحارب محمد بن طغج الإخشيد، وهُزم ثم توجه إلى بغداد وقتل بالموصل عام ٣٣٠هـ (انظر: ابن خلكان، وفیات الاعيان، ج ٣، ص ١١).

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٥٣.

(٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ط مصر ١٩١٤م، ج ١، ص ٣٥٦.

(٣) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، تحقيق: عمر عبد السلام، ط لبنان ١٩٩٠، ص ٥٥.

عدم الناس الخبز أو أكلوا النوى والميتة، وكان إذا راثت الدابة اجتمع إلى الروث جماعة ففتشوه ولقطوا ما يجدون فهي من شعير ويأكلونه، فضلاً عن بعض الناس يقفون على الطريق ويصيحون: الجوع، الجوع. إلى أن يسقطوا موتى، هذا بالإضافة إلى الفساد الشخصي للمسؤولين في السلطة فيحكي لنا الوشاء في "الظرف والظرفاء" أمثلة للتبذير مثل بيع القيان في بيوت النخاسين وإقامة الحفلات الصاخبة وابتزاز الشابات المغنيات لأموال الأغنياء علاوة على الإنفاق على الجنود والقضاة والوزراء<sup>(١)</sup>، فمثلاً أن وزيراً من الوزراء يدعى "ابن الفرات"<sup>(\*)</sup> كان يتقاضى راتباً شهرياً يقدر بسبعة آلاف دينار<sup>(٢)</sup>.

وحسبنا ما أنشده الشاعر "أبو سليمان السجستاني":

الجوع يرفع بالرغيف اليابس      فعلام أكثر حسرتى ووساوسى

والموت أنصف حين ساوى حكمه      بين الخليفة والفقير البائس<sup>(٣)</sup>

جملة القول أن وضعية هذا المناخ السيئ وحال الخلافة العباسية المهترئة سيلقى بآثاره على التعصب المذهبي وبالتالي حدوث صراعات مذهبية ولاسيما في أقاليم المشرق الإسلامي خصوصاً خراسان، ذلك أن الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتردي ستظهر آثاره بجلاء في الصراع بين المذاهب وبعضها وبين المذاهب والسلطة الحاكمة، وهذا ما نحاول تناوله و

(٤) على احمد الشحات، أبو الريحان البيروني، ط القاهرة .د.ت، ص ٢٩

(\*) ابن الفرات: هو على بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) عام ٢٩٩هـ وكانت مدة وزارته ٣ سنين و ٩ شهور ثم تولاهما ثانية عام ٣٠٤هـ وعزل ثم تولاهما ثالثة ٣٠٦هـ ثم قبض عليه هو وولده (المسعودي: مروج الذهب، ج ٤ ص ٣٠٤، ٣٠٥)

(١) أبى الهلال الصابى، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فراج، ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٨م، ص ٣٧

(٢) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط بيروت ١٩٦٥م، ص ٤٢٨

إثباته في النقاط التالية.

من المعروف أن لكل مجتمع عناصر سكانية تشكل بنية المجتمع وتكون عاملاً أساسياً في ازدهار أو تدهور ذلك المجتمع؛ لذا فنتناول العنصر التالي عناصر السكان .

### ثانياً: عناصر السكان:

إن قوام المجتمع الفارسي عموماً إبان فترة عصر الإسلام عبارة عن مزيج من العناصر والعرقيات المختلفة مرت بمراحل التباين ما بين ازدهار عناصر سكانية وضآلة عناصر أخرى، ولكن يظل أهل إيران الأصليون ذوو الألسنة الناطقة بالفارسية هم العنصر الأكبر والنفوذ الظاهر، إلا أن هناك عناصر أخرى كان لها أثر كبير في تشكيل وتغيير الأحداث والصراعات الاجتماعية بل السياسية في بلاد فارس وخصوصاً إقليم خراسان، ألا وهم العرب والترك.

### الفرس:

هم أهل البلاد الأصليون الذين أسلموا- معظمهم- بعد فتح المسلمين لبلاد إيران، وهم الذين قامت على أكتافهم الدولة العباسية حيث كانوا المساند الحقيقي والعامل الرئيسي الفعال في نجاح ثورة بني العباس للتخلص من طغيان حكم بني أمية، ولاسيما بطلهم الفارسي الكبير أبي مسلم الخراساني الذي سهل مهمة بني العباس كثيراً بقيادته للثورة في خراسان التي تسببت في سقوط حكم بني أمية.

يمثل هذا العنصر غالبية سكان خراسان وقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية منذ الأيام الأولى لقيام دولتهم، فسجلوهم في سجلات خاصة بهم حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم، فضلاً عن اهتمام الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م) بهذا العنصر فبادر بتعيين بعض منهم في مناصب إدارية وليس أدل على قولته المشهورة "يا أهل خراسان أنتم شيعتنا

وأنصارنا وأهل دعوتنا"<sup>(١)</sup>.

وقد استطاع الفرس أن يتقلدوا مناصب كبيرة في الدولة العباسية ولاسيما بعد أن اعتمد عليهم العباسيون في الإدارة، وبزغ منهم أشهر الأسر الفارسية وهم البرامكة أيام الخليفة هارون الرشيد وكان لهم دور كبير في النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون وتولية المأمون الذي ولد من أم فارسية، الأمر الذي دعا إلى القول بأن العصر العباسي الأول هو عصر نفوذ الفرس وتضاول وزن العرب سياسياً.

لكن بدأ الحال يتغير بعد مجئ الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) وبداية عصر جديد وهو نفوذ الأتراك، إلا أن الانشقاقات السياسية للكيانات الفارسية بدأت في الاستقلال عن الخلافة العباسية أو بمعنى أدق تحت إشراف الخلافة مثل الدولة الطاهرية ومؤسسها طاهر بن الحسين عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م والدويلات الأخرى الصفارية (٢٥٩هـ/٨٧٢م) والسامانية (٢٦١هـ/٨٧٣م)، ولاسيما بعد شعورهم بخبو نجم العرب، وأصبحوا يتنافسون في إظهار معالم العمران وأضحى كل قصر في عواصم الولايات يبذل ما في وسعه لمحاكاة قصر الخلافة ببغداد<sup>(٢)</sup>.

فالعنصر الفارسي في الدولة السامانية كان هو المسيطر سياسياً فالأمراء السامانيون فرس وتم توجيه جهودهم إلى إحياء الكثير من العادات والطقوس الإيرانية القديمة وأيضاً نشر الأدب والثقافة الإيرانية<sup>(٣)</sup>، محاولة منهم أن تشارك الفارسية العربية في العلوم والآداب فشرع الفرس يترجمون الكتب العربية إلى لغتهم كما ترجم العرب من قبل الكتب الفارسية إلى العربية، مثل ترجمة مجموعة كبيرة من المؤلفات في فارس والرى مثل "تاريخ الطبري"

---

(١) الطبري، نفس المصدر، ج ٩، ص ١٢٩

(١) البيروني، الآثار الباقية، نشر إدوارد سخاو، طبعة مطبعة المتني - بغداد ١٩٢٣م، ص ٣٩؛ خليل مردم بك، ابن العميد، ط مكتبة عرفة. دمشق ١٣٥٠هـ-١٩٣١م، ص ٦

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٠٦؛ عدنان مزارعي، تاريخ اقتصادي واجتماعي إيران وإيرانيين از آغاز تا صفوية، جاب أول. تهران ١٣١٨هـ.ش، ص ١٩٣

مع "تفسير جامع البيان" و"كليلة ودمنة"<sup>(١)</sup> بالإضافة إلى التأليف باللغة الفارسية ككتاب "أبى منصور الهروى" في الطب، وشرع الشعراء ينظمون بالفارسية ونبغ الرودكي السمرقندى أول شعراء الفرس الكبار أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري<sup>(٢)</sup>.

وما غدا هذا الشعور القومي الذي بعث من جديد بإيران في ظل السامانيين أن خطأ أول خطوة لإحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد، فانتعش اللسان الفارسي المتناسق مرة أخرى في عهد الأمير "إسماعيل بن أحمد" الساماني و "نصر بن أحمد" الساماني بعد أن كان حكام العرب قد حرموه على الناس لأكثر من مائتي عام<sup>(٣)</sup>.

إلا أن قيام الحكم الغزنوي في خراسان يعتبر جزءاً من التحول السياسي والاجتماعي الفارسي الكبير؛ لأنه منذ ذلك العصر فصاعداً امتد نفوذ الأتراك وقيام دويلات تركية قوية سيطرت على معظم أقاليم العالم الإسلامي كالدولة السلجوقية<sup>(٤)</sup>، لكن العنصر الفارسي في الدولة الغزنوية لم يفقد نفوذه بل بقي وبقوة خاصة في المناصب الإدارية، ذلك لحكمة وخبرة الفرس في الشؤون الإدارية والتنظيمية، فلم يشأ الغزنويون أن يعتمدوا على الأتراك لأنهم يعرفون قدرة الفرس الإدارية.

عندما سيطر السلطان محمود الغزنوي على خراسان حرص على إبقاء الكثير من الموظفين السامانيين في وظائفهم وجلهم من الفرس مثل الوزراء الأشهر الثلاثة "أبو العباس الفضل بن أحمد الإسفراييني" وزير السلطان محمود، وكذلك الوزير "أبو على حسن بن محمد الميكالى النيسابورى" الذي كان يلزم السلطان منذ بداية نشأته وأوائل حياته وعمل في عدة مناصب منها

---

(٣) عدنان مزارعي ، المرجع السابق، ص ١٩٣

(٤) عبد الوهاب عزام، الأدب العربي في بلاد فارس (دورية: محاضرات المجمع العلمي العربي) ط دمشق ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م، ص ٤٨١

(٥) ارمنيوس فاميرى، تاريخ بخارى، ص ١٠٧

(٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ؛ عدنان مزارعي، نفسه، ص ٢٠٤

أعمال الكتابة ومهامها في ديوان الرسائل وثالثهم "أحمد بن الحسن الميمندى" الذي قد تدرج في عدة مناصب إدارية قبل أن يتولى الوزارة، فقد شغل منصب رئيس ديوان الرسائل ثم اسند إليه منصب مستوفي الولايات وشئون الجند وتنظيم أموال خراسان، بالإضافة إلى مهارته الفائقة في الإنجاز ثم اسند إليه السلطان محمود الوزارة إلى أن انقلب عليه السلطان محمود في عام ٤٤١ هـ/ ١٠٢٣ م<sup>(١)</sup>، ولما تولى السلطان مسعود الحكم عام (٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م) أخرجه من السجن وعهد إليه مرة أخرى بالوزارة<sup>(٢)</sup>.

كذلك في بقية دواوين الدولة حرص الغزنويون على الإفادة من خبرة الفرس مثلاً في ديوان البريد، فقد شغل وظيفة صاحب البريد رجل يدعى "أبا عبد الله الفارسي" صاحب بريد بلخ وأيضاً "أبا المظفر الجمحي" الذي عمل في نيسابور ثم "عبيد الله سبط أبى العباس الفضل الاسفرايينى" صاحب بريد سرخس<sup>(٣)</sup>.

وبعد تأسيس سبكتكين مملكة في غزنة حرص على تكوين هيئة إدارية تطابق النظم السامانية الفارسية وكانت ثلاثة دواوين أساسية، و هي ديوان الإدارة وجبي الضرائب، وديوان يهتم بمرتبات الجيش وديوان يتعامل مع المراسلات والعلاقات السياسية مع بخارى<sup>(٤)</sup>، خصوصاً بعد استيلاء القراخانيين على أملاك السامانيين هناك في بخارى.

إلا أن هناك من المؤرخين<sup>(٥)</sup> من يعتبر أن الحكومة الغزنوية ليست تركية بالمعنى الخاص، لكن تعيينهم للإيرانيين الفرس في المناصب الإدارية ساهم في تطبعهم على الآداب والعادات واللغة الإيرانية وآدابها، مما يدعونا إلى القول بأن العنصر الفارسي بقى موجوداً في خراسان بحكم فارسية

(١) البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة: يحيى الخشاب وصادق نشأت، ط. دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٢م، ص ١٤٥، ١٥٥.

(٢) محمد حسن العمادى، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٣) البيهقي، المصدر السابق، ص ٥١، ٤٣٩.

(٤) محمد حسن العمادى، نفسه، ص ٨٩.

(٥) ذبيح الله صفا، تاريخ سياسي واجتماعي وفرهنكى إيران، طهران ٢٥٦٣ ش، ص ٨٥.

الشعب بالرغم من تركية الحكومة الغزنوية.

لكن خبأ نجم الفرس من الناحية السياسية وبات ضعيفاً، نظراً لوصول قادة العسكر الأتراك إلى سدة الحكم، حتى في مجال الأدب من حيث التأليف والكتابة لم يكن مثل الموجود سابقاً في العصر الساماني، فقد كتب اليميني "تاريخ السلطان محمود" والبيروني كتاب "التفهيم في التنجيم" بالفارسية وترجم نصر الله بن عبد الحميد "كليلة ودمنة" إلى الفارسية<sup>(١)</sup>، فضلاً عن محاول السلطان محمود- بواسطة التخويف لا الترغيب- أن يجعل مركزه في قصره بحيث كانت ترنو إليه الأبصار ويلزم المؤلفين والشعراء بتمجيد أعماله الحربية في الهند وعظمته بدفاعه عن الإسلام<sup>(٢)</sup>.

ننتقل إلى وضع الفرس في عهد السلاجقة فنجد أنه تضاعف من الناحيتين السياسية والثقافية بالرغم من فارسية شعب خراسان بفعل تجمد الفكر والعقل لدى الأتراك البدو. لكن يبقى الفرس أصحاب الخبرة الإدارية الواسعة التي جعلت السلاجقة لا يستغنون عنهم في المناصب الإدارية الكبرى مثل تولية الوزارة لأبى نصر منصور بن محمد الكندري\* "المشهور بعميد الملك الكندري في عهد السلطان طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥ هـ/ ١٠٣٧-١٠٦٣ م) أول السلاطين السلاجقة بخراسان<sup>(٣)</sup>، نخلص من هذا بأنه يمكن القول بأن الفرس لم يفلحوا في إقامة دولة عظيمة تضم أرجاء بلادهم بعد زوال حكم السامانيين وقبلهم الصفاريين وإنما كان السلطان الشامل للدولتين التركيتين

(٢) عبد الوهاب عزام، المرجع السابق، ص ٨٢

(٣) ادوارد جرانفيل بروان، تاريخ الأدب في إيران، ترجمة: إبراهيم الشواربي، ط المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥ م، ج ٢، ص ١١٠

(\*) هو أول وزير للدولة السلجوقية وكان شديد للتعصب المذهبي الحنفى وسبب معرفته بطغرل بك أنه لما ورد بنيسابور افتقر إلى كاتب يجمع بين العربية والفارسية فوجد ذلك في عميد الملك؛ لأنه بدأ حاجباً في الديوان (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤ ص ٢٢٢؛ البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣١؛ عماد الدين الأصفهاني: جريدة القصر وخريدة العصر، ص ٦٢؛ عبد العزيز: آثار الشيعة الإمامية، جزء جهارم، ص ٤٨).

(١) عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص ٢١٤

هما الغزنوية والسلجوقية<sup>(١)</sup>.

### الترك:

لقد ظهر العنصر التركي على مسرح الأحداث السياسية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري بجانب الفرس والعرب، ولم يكن للأتراك مدنية وحضارة قديمة بل كانوا أشبه بالبدو<sup>(٢)</sup>؛ لذلك أطلق عليهم الجاحظ<sup>(٣)</sup> أعراب العجم ويعنى بالأعراب البدو، وقد أكسبتهم البداوة الشدة والبأس وخشونة في الطبع<sup>(٤)</sup>.

وهنا وصف الإصطخرى<sup>(٥)</sup> طبيعة الجنس التركي قائلاً: "لفضلهم على سائر الأجناس في البأس والجرأة والشجاعة والإقدام فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم"، وقد زاد نفوذ القبائل التركية بشدة مع دخول الغلمان الأتراك في حلقة جنود جهاز الخلافة ومع الاستعانة الجنود الأتراك المأجورين طيلة خلافة المعتصم بالله (٢١٨-٢٣٢هـ / ٨٣٣-٨٤٦م) وقد تحولت العناصر التركية إلى قوة كبيرة كانت تهدد بشكل مباشر سلطة الخليفة العباسي<sup>(٦)</sup>.

وكان السبب في هذا الأمر أن الخليفة

الفرس نتيجة اهتمام كثير من العسكريين الخراسانيين والفرس بـ"العباس بن

---

(٢) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة: إبراهيم الشواربي وآخرون، ط. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب-القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م ، ص ٨٧ - ٨٨ ؛ عبد الوهاب عزام، العرب والفرس بعد الإسلام (مقالة من كتاب نواحي مجيدة من الثقافة الإسلامية)، ط مصر ١٩٣٨م، ص ١٥٥

(٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢ ؛ محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ط دار الفكر العربي ١٩٦٥م، ص ١٦٣

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ط دار الهلال- بيروت د.ت، ص ٥١٠

(٥) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ط ليدن ١٣٠٢هـ، ص ٣١٦

(٦) المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م، ص ١٦٤

(٧) فاروق متها، غزالي واسماعيليان، ترجمة: فريدون بدره أي، ط تهران ١٣٨٢هـ ش، ص ١٦.

المأمون" ابن أخيه المأمون، وطالبوا بخلافته وأيضاً لأن أم العباس التي تدعى "ماردة" كانت من الجواري التركيات، وكذلك تسلل الخوف في قلب العباسيين من العنصر الفارسي مثلما حدث في البداية مع أبي مسلم الخراساني وأسرة البرامكة وآل سهل، ومن ثم فتبدأ أحداث جديدة بأفراد أتراك مثل "أشناس" و"ايتاخ" و"بغا الكبير" وأمثالهم من الغلمان الأتراك<sup>(١)</sup>.

فقد بدأت الصراعات الشديدة إثر دخول الأتراك الأجهزة الحكومية حيث بدءوا في إيذاء الأهالي ومعارضتهم الدينيين والسياسيين والعرقين باستخدام العنف والقتل والنهب والإغارة لدرجة أنه لم يكن أمام بعض الخلفاء العباسيين والمفكرين سوى الاستسلام والخضوع لهم، حتى أن مفكراً مثل الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) قد أجبر على كتابة بعض الرسائل في مدح الجنس التركي وتفضيله على سائر الأمم والقبائل، فضلاً عن مصير بعض الخلفاء العباسيين سواء القتل أو الخلع أو سمل الأعين وأولهم المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م) الذي قُتل ومن بعده خلعوا المستعين (٢٥٠-٢٥٢هـ/ ٨٦٤-٨٦٦م) وقتلوا المعتز عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) وقاموا بتعذيب المهتدى وإيذائه بشده حتى فارق الحياة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م<sup>(٢)</sup>.

إلا أن بداية مجيء الأتراك وانتشارهم في بلاد فارس وخراسان كانت عن طريق سكنهم في الصحراء الواسعة والسهوب التي تبدأ عند حدود الصين وتمتد حتى شواطئ بحر الخزر، وظلت هجرات الترك إلى شاطئ جيحون لا ينقطع سبيلها صوب الجنوب الشرقي وذلك قبل الغزو العربي وبعده<sup>(٣)</sup>.

فقد بدأ النفوذ التركي في الأمور العسكرية منذ عهد السامانيين، حيث كان هؤلاء الأتراك عبارة عن الأفراد الصا الوسطى وتم بيعهم في البلاد الإسلامية، فيقوم الأمراء السامانيون بشرائهم

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٣. مطبعة المدني - القاهرة

١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ص ١٤٥؛ ذبيح الله صفا، المرجع السابق، ص ٨٠

(٢) ذبيح الله، نفسه، ص ٨٠، ٨١

(٣) ارمنيوس فامبرى، المرجع السابق، ص ١٢٧.

ويسندون إليهم الأعمال العسكرية، حيث جرت العادة بأن يقسم السامانيون الغلمان الأتراك إلى فرق مكونة من عدة أفراد ويسلمون كل فرقة إلى أحد الغلمان الأتراك<sup>(١)</sup>.

وبصفة عامة وجد الغلمان الأتراك الذين كانوا في جهاز الأمراء السامانيين نفوذاً وقوة غير عادية منذ منتصف العصر الساماني حيث وصل بعضهم إلى قيادة جيش خراسان، ومن هؤلاء الغلمان "ألبتكين" الذي وصل إلى رتبة قائد جند خراسان (سبهسالار) في عهد الأمير منصور بن نوح الساماني (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٦٧م)، فتمرد عليه وتوجه إلى غزنة مع مجموعة من غلمانه الخصوصيين وشكل هناك أول حكومة تركية شبه مستقلة<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذا النفوذ التمهيدي يحين عصر السيطرة السياسية والعسكرية للأتراك لاسيما بعد الضعف السياسي الذي أصاب البيت الساماني تدريجياً في الداخل والخارج، حيث بدأ الأتراك في إضعاف الحكومة السامانية بل وامتد الأمر إلى قتل أحد أمراء البيت الساماني وهو "أحمد بن إسماعيل بن أحمد"<sup>(٣)</sup>.

ويذكر "بارتولد"<sup>(٤)</sup> أن سبب دخول الترك في خدمة السامانيين هو تعهدهم أن يدافعوا عن حدود ممتلكاتهم ضد الإيلخانيين مقابل المراعي التي أعطيت لهم، إلا أن الترك كانوا ينضمون أحياناً إلى السامانيين وأحياناً أخرى إلى الإيلخانيين، بمعنى أن المصلحة هي التي توجه أهدافهم. ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح العنصر التركي هو صاحب النفوذ

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٧؛ ذبيح الله صفا: المرجع السابق، ص ٨٢

(٢) حمد الله مستوفي قزويني، تاريخ كزیده، با اهتمام ادوارد جرانفيل، ط. لندن ١٣٢٨هـ.ش، ص ١٤٠؛ البيهقي: المصدر السابق، ص ٩٨؛ عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص ١٩٥؛ ذبيح الله صفا، نفسه، ص ٨٣

(٣) الطبري، المصدر السابق، ج ١١، ص ٤٦؛ ابن الأثير، نفسه، ج ٨، ص ٢٧؛ ذبيح الله صفا، نفسه، ص ٨٣.

(٤) تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، ط القاهرة ١٩٥٨م، ص ١٠٤.

الأقوى سياسياً وعسكرياً، حيث نجحوا في تأسيس أول دولة شبه مستقلة عام ٣٥٥هـ/٩٦٦م في غزنة على يد الغلام التركي "ألبتكين" ثم جاء من بعده خلفائه سبكتكين والسلطان الذي كانت له أحداث ساهمت في تحول أحداث المشرق الإسلامي عامة وخراسان خاصة وهو محمود الغزنوي.

بداية عصره هي بداية الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية في خراسان، حيث شاع في عهده مصادرة أموال الأمراء والوزراء والأثرياء لدرجة أن محمود الغزنوي ومن بعده ابنه مسعود كانوا ينهبون أموال من يريدون بتهمة الكفر والزندقة والإلحاد - وهذا ما سيتم تفصيله لاحقاً - ومصادرة ثروات البلاد<sup>(١)</sup>.

وباعتبار الأتراك مؤلفين من أكثر من عنصر، فقد كان هناك عنصر الأتراك الغز الذين تميزوا بالشدة والقسوة وحب الإغارة على أملاك الغير والبحث عن مصلحتهم أينما كانت<sup>(٢)</sup>، وقد دخلوا بلاط السلطان محمود الغزنوي في بداية القرن الخامس الهجري ولاسيما أن كانت ولايات الغزنويين وغيرهم تضار اقتصادياً من غارات السلب التي يقوم بها الغز، ولكن هذه الغارات على اتساع مساحتها في بعض الأحيان ما كانت لتحث أي تغيير سياسي، وذلك لأن البدو ينتقلون من مكان إلى آخر دون أن يتركوا حاميات عسكرية ولايعمرون المدن التي خربت.<sup>(٣)</sup>

وقد أورد الراوندي<sup>(٤)</sup> سبب مجيء الأتراك الغز في البداية إلى ماوراء النهر قبل خراسان حيث أنهم جاءوا إلى قرية "نور" بمدينة بخارى و"الصغد" بسمرقند فاستولوا على المراعي الموجودة في المدينتين، بفضل جيوشهم الكثيرة وجنودهم الوفيرة.

---

(١) ذبيح الله صفا، المرجع السابق، ص ٨١

(٢) عنصر المعالي كيكأوس بن وشمكير بن زيار، قابوسنامه، ترجمة: محمد صادق نشأت- أمين بدوي، ط ١ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م، ص ١٢٩

(٣) بارتولد، المرجع السابق، ص ١٠٤

(٤) راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص ١٤٧

وهنا يلاحظ مؤرخو إيران الفرق الكبير بين الغز الذين دخلوا قبل ذلك إيران متفرقين رعاة لا نظام لهم وبين أحفاد سلجوق الذين كانت قواتهم متفوقة نظاماً وتشكياً<sup>(١)</sup>.

وبمجيء الأتراك السلاجقة -الذين سنتحدث عن نشأة دولتهم في الفصل السادس- ازداد العنصر التركي سطوة ونفوذاً حيث تكوين دولة مترامية الأطراف، إلا أنه يبقى سيطرة هذا العنصر فقط على النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية؛ لأن التركيبة الاجتماعية للشعب في خراسان فارسية بجانب وجود الأتراك وبدا ذلك التأثير بشدة حتى على الألقاب التي اتخذها السلاجقة لأنفسهم.

ومن الملاحظ أن الأتراك السلاجقة استعملوا اللقب الإيراني القديم "شاهنشاه" وذلك على العملة التي سكوها باسمهم، وهو لقب لم يستعمله السامانيون ولا الغزنويون بصفة رسمية، فقد كانوا جميعاً يريدون أن يظلوا أمراء سنيين تابعين للخلافة العباسية يباعدون بين أنفسهم وبين شبهة الميل إلى إحياء التقاليد والنظم الإيرانية قبل الإسلام<sup>(٢)</sup>.

قصارى القول لقد أحدث الترك خلخلة في البناء الإثني للمجتمع فضلاً عن ذيوع أعرافهم البدائية التي كرسست التخلف، إذ حلت النظم القبلية محل القوانين والتشريعات التي ترسخت إبان العصر السابق، كما أسهموا في ترسيخ الطريقة والدروشة بطابعها التواكلي الانسحابي الانحلالي على حساب النزعات العقلية- وهذا سيأتي تفصيلاً فيما بعد- والفكرية<sup>(٣)</sup>، فضلاً عن غياب الأمن الاجتماعي، والعدالة وإهمال العلم والزهد والورع، بجانب رواج سوق

---

(٥) بارتولد، المرجع السابق، ص ١٠٤

(١) نفسه، نفسه، ص ١٠٥

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية. بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ج ٩، ص ٨٢، ١٨٤؛ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، (طور الإنهيار)، ط ١. دار سينا للنشر- القاهرة ١٩٩٢م، ج ٣، ص ٩٣

الفساد وسوء الأخلاق بالإضافة لانتشار التعصب والعنف والقسوة في المعتقدات<sup>(١)</sup>.

### العرب:

هم العنصر الأول الذي قام بفتح بلاد الفرس ونشر الإسلام في المدن الفارسية، والذي بدوره الفعال أصبح للحضارة الإسلامية شأن عظيم بين حضارات العالم كان مؤثراً في المجتمع الفارسي منذ فتحه لبلاد فارس.

فلم يكن انتشار الإسلام في إيران مجرد صراع بين الإسلام و الديانات الأخرى فحسب بل هو تنظيم سياسي معين؛ لأن الدخول في الإسلام كان يعطي حق المواطنة في الدولة الإسلامية ويتيح للمسلمين الفرس أن يشتركوا في النشاط السياسي ومن ثم يمثل نشاطاً اقتصادياً؛ لأن العرب جلبوا معهم نظريتهم في الضرائب والملكية وسبل الإنتاج الزراعي وغيره من وجوه الإنتاج ثم هو في الوقت نفسه تطور اجتماعي يشمل تغييراً في نظام الأسرة وفي حياة المدنية وفي التركيب الطبقي<sup>(٢)</sup>.

منذ هجرة القبائل العربية بعد الفتح فقد سكنوا الأراضي الموجودة، وإن الأرض التي عمرها المسلمون لم تكن لأصحابها المعينين من السكان وإنما كانت في أكثرها أموال آل كسرى<sup>(٣)</sup>، ويؤيد هذا الرأي آرثر كريستنسن<sup>(٤)</sup> في حديثه عن وضعية الأرض وخارجها بعد الفتح الإسلامي.

وكانت من ضمن هذه الأراضي الواسعة التي حازها الأمراء وكبار الحكام العرب لأنفسهم، وأيضاً أرض من هاجر أصحابها عنها وفي ذلك

---

(٣) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٣ ، ٥٥ ؛ ذبيح الله صفا، المرجع السابق، ص ٨٢

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٥ ؛ حسن أحمد محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحتين العربى والتركى، ط دار الفكر العربى ١٩٩٨م، ص ٢٥

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٠٩ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ؛ شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (نشأتها - مقوماتها- تطورها اللغوى والأدبى)، ط دار الكتاب العربى - القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ص ١٩٢

(٣) إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، ط الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٦م، ص ٤١٠

السياق يروي البلاذري هروب كثير من أهل خراسان وسجستان وكرمان فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها وأدوا العشر فيها واحتقروا القني في مواضع منها<sup>(١)</sup>.

لكن تبدل البيئة على العرب لعب دوره، فصلتهم بالفرس وكثرة دخولهم في الإسلام، فضلاً عن تجمع الثروة لدى العرب أدى إلى تسرب الترف ورأوا في الأرض مصدر ثروة فمالوا إلى اقتناء الأراضي والضياح يستغلونها بتشغيل سكان البلاد المحليين في زرعها، وهكذا بدأ دور اقتصادي جديد هو دور الإقطاع بل دور الأرستقراطية العسكرية، وظهر بجلاء دور السادة الإقطاعيين الذين كانوا جلهم من الأمويين أو من القبائل الموالية في الربع الأول من القرن الثاني الهجري<sup>(٢)</sup>.

وقد كان اقتناء العرب للأراضي في خراسان واشتغالهم باستثمارها أدى إلى دخول المجتمع في دور زراعي، ولاسيما أن قوى هذا الاتجاه بانتقال الحكم إلى العباسيين<sup>(٣)</sup>.

ولما آل حكم خراسان إلى العباسيين وقيام ثورتهم التي أطاحت بالحكم الأموي الجائر، أخذ العنصر العربي في الضعف نظراً لاعتماد العباسيين على سكان إيران الأصليين من الفرس وخصوصاً أهل خراسان الذين ساندوهم في الثورة.

وفى هذا السياق يبرر الدورى<sup>(٤)</sup> هذا الضعف العربي بنكبة الأرستقراطية الأموية واشتراك الأعاجم في الحكم مما أضعف كبرياء العرب وقلل من شعورهم الأرستقراطي فأخذ بعضهم يشتغل المهن الحرة ومنها زيادة الاختلاط بالفرس، ولعل هذا الرأي جعل بعض المؤرخين ينظرون إلى الثورة العباسية أنها ثورة اجتماعية- اقتصادية مثل "برنارد لويس" الذي

---

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥؛ شكرى فيصل، المرجع السابق، ص ١٩٢

(١) عبد العزيز الدورى، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٩

(٢) نفسه، المرجع السابق، ص ١٩

(٣) دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٩

أعلن بطلان أن الثورة العباسية ثورة عنصرية أو قومية أي صراع بين العرب والفرس<sup>(١)</sup>، ويعضد هذا الرأي ابن خلدون<sup>(٢)</sup> بقوله أن العرب سريعو التأثير بالحضارة فإذا تحضروا انغمسوا في البذخ والترف، الذي حتماً يؤدي إلى مرحلة تكسد الثروة مما يؤدي إلى تنامي الظلم والجور يسبب في النهاية قيام ثورة ضد هذا الظلم.

وقد أورد الطبري<sup>(٣)</sup> إحصائية القبائل العربية التي دخلت خراسان تسعة آلاف من عبد القيس وتسعة آلاف من القبائل الحجازية وسبعة آلاف من بكر بن وائل، وعشرة آلاف من تميم وأربعة آلاف من عبد القيس وعشرة آلاف من القيس، وعشرة آلاف من الأزد وسبعة آلاف من عرب أهل الكوفة، ومن المناطق التي استقر بها العرب بلخ التي بها مجموعة من التميميين<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة للدور العربي في عهد السامانيين فلم يكن للعرب دور بارز في السياسة، إلا أنهم كانوا بمثابة جنود مرتزقة في الجيش لمعرفتهم ودرايتهم وخبرتهم الطويلة في ميدان القتال فضلا عن انصهارهم مع المجتمع الفارسي ولاسيما أنهم يتكلمون باللغة الفارسية بقدر ما يتكلمون العربية<sup>(٥)</sup>، الأمر الذي ساعد على اندثار الشعوبية في العهد الساماني<sup>(٦)</sup>.

لم يختلف الأمر كثيراً في العصرين الغزنوي والسلجوقي فقد كان دور العرب منحصراً في الدور العسكري إلا أنه يلاحظ أن مجموعة المقاتلين قد دخلت خراسان مع أسرها، ولكن نظام العطاء أو التسجيل في الديوان لم يكن يبيح تسجيل جميع أبنائهم ضمن قوائم هذا الديوان بل كان يقتصر عادة على

---

(٤) ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للإسلام، ط دار التراث القاهرة ١٩٨٥م، ص ٢٦٩

(٥) المقدمة، ط ١ دار الفجر القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٢٧

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ١٢٢

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٣

(٢) اربري، تراث فارس، ترجمة: أحمد الساداتي وآخرون، ط . دار إحياء الكتب العربي - القاهرة

١٩٥٩م، ص ١٠٦

(٣) عبد الناصر إبراهيم، خراسان في عهد السامانيين (رسالة دكتوراه)، إشراف: عصام الفقهي، ط

القاهرة ١٩٩١م، ص ٢١٩

ابن واحد، وهذا يعني وجود آخرين دون عطاء وهذا جعل المقاتلين يبحثون عن مورد آخر للعيش كالتجارة واستغلال الأرض فاشتغلوا بالزراعة والرعي فكسبوا منها أموالاً كثيرة، ويذكر المؤرخون أن العرب الذين سكنوا في ضواحي سمرقند أصبحوا من كبار الأثرياء لاشتغالهم بتربية الجمال وبالصناعات اليدوية<sup>(١)</sup>.

ويكشف العتبي<sup>(٢)</sup> في تاريخه عن دور العرب في الدولة الغزنوية، ومدى اهتمام السلاطين بهم كقادة لجيوشهم أو طلب العون والمساعدة في حروبهم ضد السلاجقة، فقد شارك القائد "محمد إبراهيم الطائي" ضمن قوات عربية مع السلطان محمود في حروبه ضد القراخانيين، كما ساهم "أبو الحسن عبد الجليل" بالمشورة مع السلطان مسعود في حربه ضد السلاجقة.

وكان أبو الحسن عبد الجليل يطمع في رئاسة الديوان (ديوان الرسائل) بعد وفاة "أبي نصر بن مشكان"، كما كان من ندماء السلطان مسعود، وقد قاد الفرقة العربية والكردية في حروب كثيرة للمحافظة على أمن الدولة الغزنوية، وكان آخرها معركة داندانقان التي أبلى فيها غلمان العرب أحسن البلاء<sup>(٣)</sup>.

وظل وضع العنصر العربي هكذا في العصر السلجوقي الذي شهد أقول العنصر العربي تماماً، ولم تذكر المصادر والمراجع أي دور للعنصر العربي حتى على المستوى العسكري<sup>(٤)</sup>.

### ثالثاً: طبقات المجتمع:

لقد كان المجتمع الخراساني في هذا العصر من ثلاث طبقات رئيسية

---

(٤) محمد حسن العمادي، خراسان في العصر الغزنوي، ص ١٧٢

(٥) تاريخ اليميني، تحقيق: احسان ذنون الثامري، ط دار بيروت ٢٠٠٤م، ص ٢٥٦؛ البيهقي، انفس المصدر، ص ٦٥٤

(١) العتبي، المصدر السابق، ص ٣٢٣؛ محمد حسن العمادي، المرجع السابق، ص ١٧٢

(٢) إبراهيم باستاني باريزي، يعقوب بن الليث الصفار، ترجمة: محمد الرئيس، ط دار الرائد العربي. دبت، ص ٨

تضم بداخلها عدة شرائح :

فالأولى هي الطبقة العليا أو الأرستقراطية التي تضم الأمراء الحكام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين وشريحة الفقهاء ورجال الدين والموالين للسلطة، أما الثانية فهي الطبقة الوسطى أو ما يصطلح عليها "البورجوازية" فتضم موظفي الدواوين وكبار التجار وأوساطهم والصناع ورجال الحسبة والقضاء، فأما الثالثة هي الطبقة الدنيا أو عامة الشعب من أصحاب الحرف والزراع و الخدم والرقيق.

### الطبقة العليا (الأرستقراطية):

تلك الطبقة التي ظلت تقريباً بلا تباين على مختلف العصور خاصة منذ عهد السامانيين، فظلت التركيبة الاجتماعية لها كما هي بل تطورت إلى الاتساع في النفوذ والسلطان.

لقد عاشت تلك الطبقة على الصعيد الاجتماعي حياة البذخ والترف وكان في أعلى درجاتها الأمراء والحكام الذين دانت لهم رقاب العليا وصبت الأموال التي تعد بالملايين في خزائهم، وكانت مصادرها متعددة مثل ضرائب الأرض، وأيضاً ضرائب كثيرة على الصادرات والواردات من الرقيق والتجارة، وجرت العادة أن تتبع الإمارة كثير من الضياع تعود ثمارها جميعها إلى الأمير وخزائنه<sup>(١)</sup>.

ويصف ابن حوقل<sup>(٢)</sup> سكن هؤلاء الأرستقراطيين في الفنادق الفارهة وهم تجاراً كبار وأهل البضائع والأموال، وتركز أماكن هؤلاء في مدينة نيسابور حيث وصفهم بأنهم أيسر أهل خراسان، حيث كانت نيسابور بوابة إيران الشرقية، ولهذا توطدت منزلتها كمدينة تجارية كبيرة وبعد تدهور مكانة بغداد في القرن الخامس الهجري أصبحت نيسابور أكثر أهميتها من القنطرة. ١٠٨

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١١، ص ٣٠؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، ط ٤ دار المعارف القاهرة ١٩٩٦م، ج ٤، ص ٤٩٨

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٢؛ مرتضى رواندي: تاريخ اجتماعي إيران (جلد بنجم) حيات اقتصادي مردم إيران از آغاز تا امروز، ط ٣ تهران ١٣٧٢هـ. ش، ص ٢٦٤

وسكانيا<sup>(١)</sup>، وكذلك وجد الأشراف الذين هم شريحة أخرى من الطبقة العليا بمدينة بلخ<sup>(٢)</sup>.

لقد كان للأرستقراطية السامانية دور هام في حراسة مصالح الخلافة العباسية في المشرق عموماً وخراسان خاصة، بحكم امتدادهم الطبيعي للحكام الإقطاعيين، الذين تعرضوا بعد قيام حكومتهم لحرب المتمردين عليهم من النبلاء، وكانت عراقيل الحكام الإقطاعيين في هذا الوقت من الشدة بحيث إنها كانت تصيب معظم أعمال الحكومة المركزية بالشلل التام وقد حاول بعض الأمراء الأقوياء والأذكياء بشتى الطرق عن طريق الحرب أو الحيلة أن يمنعوا نفوذ وعراقيل الأشراف وأصحاب السلطة<sup>(٣)</sup>، مثلما فعل الأمير أحمد بن إسماعيل الساماني (٢٩٥-٣٠١هـ/٩٠٧-٩١٣م) عندما علم بثراء عامله بارس الكبير على طبرستان ثراءً فاحشاً قبض عليه فهرب هذا العامل، لكن الأمير لم يغضب لهرب العامل إلى بغداد بقدر ما غضب لخروج أمواله من يده<sup>(٤)</sup>.

من خلال ما سبق يمكننا القول بأن هناك صراعاً بين شريحتين من الطبقة العليا، شريحة الأمراء الحاكمين والأخرى الإقطاعيين والنبلاء، خصوصاً بعد وصول قادة العسكر الترك إلى مناصب كبيرة هامة إدارياً وعسكرياً فأصبحت هناك رغبة من العسكر الأتراك في السيطرة على الأمير الحاكم ومن ثم السيطرة على مصادر الدخل والاستيلاء على الأراضي والإقطاعات، وبعدما كانت بين الطرفين مصالح مشتركة، فالأمراء الحاكمون يرغبون في تأمين أنفسهم من الحركات التمردية من قبل المعارضين سواء مذهبية أو حتى معارضين من أجل الظلم الاجتماعي الموجود آنذاك -التي سيأتي تفصيلاً فيما بعد- وأخذوا العسكر الترك لقمع المعارضين.

---

(٣) ابن حوقل ، سورة الأرض ، ص ٣٦٢ ؛ مورييس لومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، ط دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٥٥

(٤) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص ٢٦٤

(٥) عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص ١٩٤

(٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣ ؛ ارمنيوس فامبري، المرجع السابق، ص ١١٢.

ويعضد هذا الرأي "دونالد ولبر"<sup>(١)</sup> قائلاً بأن تحول الحكومة السامانية إلى النظام الإقطاعي تسبب في ظهور حكام أقوياء مما سبب صراعات أفضت في النهاية إلى إسقاط الدولة .

ومن ضمن الشرائح الهامة في طبقة الأرسقراطية أو الطبقة العليا والمكرسة للظلم شريحة الفقهاء والعلماء الموالين للسلطة، الذين طالما برروا مشروعية حكم الأمراء والسلاطين القائم على التسلط وقد نيط ببعضهم المناصب الهامة كالوزراء والقضاة والإفتاء فضلاً عن الكتابة في الدواوين؛ لذلك حازوا الإنعامات وجمعوا بين المكانة الروحية والمال والجاه، ووقفوا إلى جانب السلطة ضد العامة يرهبونهم باسم الدين، فتقلبوا في حياة البذخ والترف فاقتنوا القصور والجواري والغلمان، كما أسهموا بدور كبير في إذكاء نيران الصراعات المذهبية وحاربوا العلماء والفلاسفة وتصدوا للفكر الحر والاجتهاد مروجين للاتجاه النصي الغيبي المبرر لشرعية النظم العسكرية بالحق أو الباطل<sup>(٢)</sup>.

وحسبنا ما فعله الغزنويون في عهد السلطان محمود الغزنوي ضد الشيعة والمعتزلة حيث استعان بقضاة المذهب الحنفي، لتكفيرهم وبالتالي إعدامهم، وأيضاً الغزالي مع السلاجقة وكل هذا على غرار ما فعله الخليفة المقتدر وصلبه للحلاج الصوفي الذي سيأتي فيما بعد .

وكذلك لم يختلف الأمر في عهد الغزنويين حيث استعان بقضاة المذهب الحنفي، لتكفيرهم وبالتالي إعدامهم، وأيضاً الغزالي مع السلاجقة وكل هذا على غرار ما فعله الخليفة المقتدر وصلبه للحلاج الصوفي الذي سيأتي فيما بعد .

وكذلك لم يختلف الأمر في عهد الغزنويين حيث استعان بقضاة المذهب الحنفي، لتكفيرهم وبالتالي إعدامهم، وأيضاً الغزالي مع السلاجقة وكل هذا على غرار ما فعله الخليفة المقتدر وصلبه للحلاج الصوفي الذي سيأتي فيما بعد .

وكذلك لم يختلف الأمر في عهد الغزنويين حيث استعان بقضاة المذهب الحنفي، لتكفيرهم وبالتالي إعدامهم، وأيضاً الغزالي مع السلاجقة وكل هذا على غرار ما فعله الخليفة المقتدر وصلبه للحلاج الصوفي الذي سيأتي فيما بعد .

(١) إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد النعيم حسنين، ط مكتبة مصر ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، ص ٥٣

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣١٠؛ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، (طور الانهيار)، ج ٣، ص ١٢٨

ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال<sup>(١)</sup>.

وفى هذا الصدد أوردت كثير من المصادر فتوحات السلطان محمود الغزنوى للهند وكشفت النقاب عن الأسباب الحقيقية، فقد ذكر "ابن ظافر الأزدي"<sup>(٢)</sup> (ت: ٦١٣هـ/ ١٢١٦م) أن محموداً الغزنوى استطاع أن يستلب الأموال والذهب من معابد الأصنام الهندية حيث التماثيل المصنوعة من الياقوت الأحمر والفضة، وكذلك "الكرديزى"<sup>(٣)</sup> (ت: ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م) فسر غزوات محمود الغزنوى بأنه عندما علم بمكانة معبد الهنادكة العظيمة مثل مكة عند المسلمين فتملكته الرغبة أن يستولي على هذه الولاية وبها "معبد السومناث" المقدس، وأيضاً أورد "عماد الدين الأصفهاني"<sup>(٤)</sup> (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) إهداء محمود الغزنوى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٥٠هـ/ ١٠٣٠-١٠٥٨م) بصنماً ذهبياً وزنه ٤٠٠ رطل بعد فتحه لمدينة الملتان\* .

وقد نشر "جوستاف لوبون"<sup>(٥)</sup> رسالة قد أرسلها محمود الغزنوى إلى أحد قواده واصفاً معابد غنية بالأصنام الذهبية المرصعة بالياقوت الأحمر والتماثيل الذهبية والفضية وتقديرها بملايين الدنانير، لكن ليس فقط السلطان محمود بل وخليفته ابنه

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣٤؛ شوقى ضيف: المرجع السابق، ص ٥٠٠

(٢) أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: على عمر، ط مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة ٢٠٠١م، ص ٣٢٨

(٣) زين الأخبار، ترجمة: عفاف زيدان، ط القاهرة ١٩٨٢م، ص ٢٩٠

(٤) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق: عمر عبد السلام تدمر، ط المكتبة العصرية - بيروت ٢٠٠٢م، ص ٢٧٦

(\*) الملتان: مدينة من مدن إقليم الهند وتسمى فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند الذي تحج إليه من أقاصي بلدانها وسائر اصقاعها وتعظمه، ويتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمالٍ عظيم، وسميت الملتان باسم الصنم والصنم اسمه ملتان . (ابن حوقل : صورة الأرض، ط . منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، د.ت، ص ٢٧٧-٢٧٨؛ عبد الحميد البطريق ومحمد عطا : باكستان في ماضيها وحاضرها، ط دار المعارف مصر د.ت، ص ١١).

(١) حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، ط ٣ دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٨٧

مسعود الغزنوى (٤٢١-٤٣١هـ/١٠٣٠-١٠٤٠م) الذي غزا الغور\* وهو إقليم مشهور بالرقيق حيث إن أكثر رقيق الغور يقع على هرات وسجستان؛ لأن أهل تلك النواحي المجاورين لهم يسرقون أبناءهم ونساءهم ويستخرجونهم إلى بلادهم<sup>(١)</sup>.

ولم يكتفِ سلاطين الغزنويين بجلب الأموال بالطرق السابقة وإنما عينوا عمالاً وجباةً للضرائب على خراسان، وكان هدفهم جلب الأموال وإرسال الهدايا إليهم في المناسبات والأعياد، فأخذ هؤلاء العمال يظلمون الناس ويضربونهم لكي يحصلوا على الأموال المكلفين بدفعها نهاية كل عام، ففي فترة حكم السلطان مسعود تعرض سكان خراسان لظلم العميد "سورى بن المعز" الذي أطلق يده في هذا الإقليم ولجأ إلى كافة أساليب القهر والهوان في سبيل الاستحواذ على الأموال الكثيرة والهدايا الثمينة لإرسالها إلى غزنة في إحدى المناسبات والأعياد<sup>(٢)</sup>.

بالإضافة إلى أسلوب آخر اتبعه السلطان محمود الغزنوى وهو مصادرة ونهب أموال الوزراء وأملأك كبار الأشراف وحكام المناطق المستولى عليها ويضمها إلى أملاكه الخاصة، ولم تكن أراضيها في مكان واحد أو قطعة واحدة وإنما كانت متشعبة في كافة مناطق الدولة وكان يديرها ديوان مخصوص في كل ناصية، فمثلاً يذكر البيهقي (ت: ٤٧٠هـ/١٠٧٧م) أن السلطان محموداً قد سلم الأملاك السلطانية الخاصة في ولاية غزنة لأحد خاصته لكي يباشرها، وكان لقب ذلك النائب صاحب ديوان غزنة<sup>(٣)</sup>.

---

\* الغور: أحد الشعوب الإفغانية التي سكنت هضبة البامير قبل الإسلام الذي دخلها عن طريق الدعاء، كذلك ينسبون إلى غورستان الممتدة من هرات إلى تخوم غزنة وظلت هذه المنطقة غير مفتوحة طوال العصور الإسلامية حتى قدوم الغزنويين. (أنظر: الجوزجاني، طبقات ناصري، ص ٣٣٦)

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٨١؛ الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط مكتبة الثقافة القاهرة، دت، ج ١، ص ٤٦٨

(٣) محمد العمادي، المرجع السابق، ص ١٦٢

(١) مرتضى راوندی، المرجع السابق، جلد بنجم، ص ١١٦

وعن شدة حب واهتمام السلطان محمود الغزنوى بالمال فيذكر ميرخواند<sup>(١)</sup> (ت: ٩٠٣هـ/٤٩٧م) أنه عند مرضه أمر قبل وفاته بأن يحضروا له ما جمع من أموال وجواهر والذهب أيام سلطنته، ونظر إليها وبكى أنه سيغادر هذه الكنوز التي جمعها، حيث كان حريصاً على الاستيلاء على أموال الأغنياء ولاسيما أنه علم مرة أن بنيسابور رجلاً ثرياً فاستدعى هذا الشخص إلى غزنة وقاله له سمعنا أنك قرمطي وبالفعل أخذ أمواله بتلك التهمة .

بالنظر إلى المسائل المذكورة سابقاً فإنه يجب اعتبار الاستعمار الاقتصادي والمالي والإنساني أحد سمات النظام الغزنوي، والجدير بالذكر أنه من مجموع الوثائق التاريخية الموجودة تبين أن الثروة والدخل الناتج عن الحرب والاستغلال الاقتصادي كان له في الغالب الجانب الشخصي الفردي وملكية السلطان أكثر منه للمال العام وبيت المال، حيث إن الجزء الأعظم من هذه الأموال يجمع في الخزائن الملكية<sup>(٢)</sup>.

وعلى نفس النهج سارت الطبقة الأرستقراطية في عهد سلاطين السلاجقة والتي كانت سمتهم الأساسية الانغماس في الترف، إذ كانوا يعيشون عيشة تنسم بالبذخ والأبهة ؛ لأن اتساع الدولة يسر لهم سبل الحياة المترفة الناعمة، وقد شغف السلاجقة بسكنى القصور الفاخرة بعد قيام دولتهم واستقرارهم وتركهم حياة البداوة والتنقل وتفننوا في تجميل قصورهم، فضلاً عن مجالس الطرب والغناء والشراب التي لم تقتصر على السلاطين بل قلدهم فيها الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة، وقد أدى انغماس السلاطين وكبار رجال الدولة في ألوان الحياة المترفة إلى إصابتهم بالأمراض المهلكة التي قضت على كثير منهم في سن الشباب، نتيجة الإنكباب على الملذات

---

(٢) روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة: احمد عبد القادر الشاذلي، ط ١ القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ١٥٧، ١٥٨

(٣) الكرديزي، زين الأخبار، ص ٢٩٠؛ عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص ٢٠٦

والشهوات وعدم التوسط في ممارسة ألوان الحياة المختلفة<sup>(١)</sup>.

### الطبقة الوسطى:

من المعلوم أن هذه الطبقة قد تعاظم دورها منذ منتصف القرن الثاني الهجري على سيادة الإقطاعية خصوصاً في العصر العباسي الأول، الأمر الذي أدى إلى صحوه بوجازية وتعتبر هي الصحو الأولى، و التـ، نحت فـ، تحققة، بعض، المكاسب الكبيرة على مختلف الأصعدة سياسياً واجتماعياً وثقافياً، تمثل ذروته في عصر الخليفة المأمون، أما الآن علينا البحث عن مصير تلك الطبقة وتبيان شرائحها ورصد دورها التاريخي وتفسيره خلال فترة محل الدراسة، وهي عصر سيادة الإقطاعية العسكرية التركية.

### ويمكن تقسيم تلك الطبقة إلى عدة شرائح على النحو التالي:

- ١- كبار التجار الذين يشكلون الشريحة الأساسية نظراً لقيامهم بدور في حركة التجارة العالمية التي انتعشت في بعض الأقاليم.
- ٢- المشتغلين بشئون المال من الصيارفة والجهاذة والوسطاء والذين كان نشاطهم يخدم الشريحة السابقة، وبعض هؤلاء كانوا من أهل الذمة.
- ٣- رؤساء الحرف الذين ظلوا يمارسون نشاطاً في بعض القطاعات المهنية.
- ٤- العلماء غير المواليين للسلطة والمدرسين في المدارس التي أقامتها الدولة لترويج مذهبها الرسمي.
- ٥- صغار الملاك في الريف ممن ظلوا يحتفظون بأنصبة محدودة من الأرض لم تدخل في إطار الإقطاعات<sup>(٢)</sup>.

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط القاهرة ١٩٩٤م، ص ٤٧٧؛ عبد النعيم حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، ط ١ دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢م، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٩٩؛ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ٣، ص ١٣٣.

ويضاف إليهم شريحة موظفي الدواوين والكتاب، وأيضاً يدخل معهم شريحة القضاة<sup>(١)</sup>.

ولنبداً بشريحة كبار التجار حيث لم يختلف وضعهم في العهود الثلاثة السامانية والغزنوية والسلجوقية، لقد كان كبار التجار في وضع جيد للغاية نظراً لاستمرار التجارة بين الشرق والغرب، ولعل هذا يفسر تواجد تجار الأقاليم المشرقية في بلاد آسيا الغربية، حيث كانوا ينسبون إلى مدنهم، فيقال التاجر الهندي والطوسي والخراساني والخوارزمي والسمرقندي<sup>(٢)</sup>.

وقد أورد ابن حوقل<sup>(٣)</sup> في هذا الصدد أهم معابر التجارة حيث عد مدينة (أمل) التي تقع على شاطئ نهر جيحون وبها مجمع طرق خراسان إلى ما وراء النهر وهي أعظم معابر خراسان، وكذلك أيضاً مدينة (زم) بها معبراً من ما وراء النهر إلى خراسان مما ساعد على تفعيل الدور التجاري في تلك المنطقة سواء بري أو بحري الأمر الذي كان له أثر بعيد على الأحوال السياسية في خراسان والمشرق الإسلامي عامة.

وكان معظم هؤلاء التجار يشتغلون في تجارة الرقيق التي ازدهرت خلال هذا العصر، حيث أصبحت من أهم فروع التجارة في إيران من بيع وشراء العبيد التي يتم استيرادهم من دول شرق أوروبا والصحراء التركية والهندية والساحل الغربي لإفريقيا، ويتضح من المثال التالي مدى رواج النخاسة، فكما يقول الإصطخري<sup>(٤)</sup> (ت: ٣٢١هـ/ ٩٣٣م) قام تاجر فارسي من أهالي ساحل الخليج الفارسي في رحلة

---

(٣) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٥٠٢

(١) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٣٦

(٢) صورة الأرض، ص ٣٧٦؛ الإصطخري: المصدر السابق، ص ١٥٧

\* أمل: بلدة في الركن الجنوبي الغربي للسهل الشرقي لمازندران على مسيرة اثني عشر ميلاً جنوبي بحر قزوين، وهي قسبة طبرستان يسكنها الكثير من التجار والعلماء وهي مدينة كبيرة أكبر قزوين وهي مسقط رأس المؤرخ الكبير الطبري، وقد خربت على يد مسعود الغزنوي عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م. (أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٨٦؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٧)

\* زم: هي بليده على طريق جيحون من ترمذ وأمل نسب إليها نفرن من أهل العلم ومنهم يحيى بن يوسف ابن أبي كريمة الزمي. (أنظر: ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٥٠)

(٣) المسالك والممالك، ص ٢٢٠

بحرية صيفية عام ٣٢٥هـ باصطحاب اثني عشر ألف عبد أسود من بقية الأمتعة والبضائع التي كان يحملها على أربعمائة مركب، وذكر أيضاً النظامي العروضي السمرقندي أنه قد وجد حي النخاسين في مدينة بلخ في القرن الخامس الهجري<sup>(١)</sup>.

أما عن شريحة المشتغلين بأمور المال من الصيارفة والجهابذة وسطاء التجارة، فقد حظوا بمكانة متميزة لحاجة كبار التجار وأصحاب الحرف إليهم، حيث كانوا يقرضون التجار بالربا، وبالمثل أقرضوا الحكام في أوقات الأزمات ويتحفونهم بالهدايا والتحف<sup>(٢)</sup>، وفي هذا الصدد ذكر آدم ميتز<sup>(٣)</sup> أن أحد الوزراء في عهد الأمير نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٣-٩٤٢م) قد باع ضياعاً سلطانية لأحد التجار في عام ٣٢٣هـ بخراسان ليفي بسداد ما كان قد استلمه من مالهم، فيتضح من هذا النص مدى قوة نفوذ شريحتي كبار التجار والصيارفة ووسطاء التجارة.

إلا أن مكانتهم المتفوقة لم تكن دائمة، إذ تعرضوا للبطش والإيذاء والاضطهاد في أحيان كثيرة، بحكم أن معظمهم كانوا ذميين<sup>(٤)</sup>.

وبالمثل تعرض أصحاب الحرف للمحن في ظل النظم التركية العسكرية لاسيما عصري الغزنويين والسلاجقة للظلم والجور، تلك النظم التي لم تتورع عن تسخيرهم في مشروعاتها الخاصة الأمر الذي حدا بغالبيتهم إلى الهجرة وانخراط البعض الآخر في الطرق الصوفية والمذهبية<sup>(٥)</sup>.

أما عن شريحة العلماء والفقهاء والأدباء غير الموالين للدولة، فقد كانوا في منزلة أقل من نظرائهم الذين يعملون في الدواوين- ومن اشتغل منهم بالتدريس بالمدراس النظامية عهد السلاجقة- كانوا يتقاضون رواتب لا بأس بها بلغت اثني عشر ديناراً شهرياً فضلاً عن الجرايات والهدايا والإنعامات

---

(٤) مرتضى راوندی، المرجع السابق، جلد بنجم، ص ٩١

(١) آي. آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد

الهادي عبلة، ط دار قبة دمشق ١٩٨٥م، ص ٤٠٧

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ١٩٦

(٣) آشتور، المرجع السابق، ص ٤٠٧

(٤) آشتور، المرجع السابق، ص ٣٧٨

التي كانت تمنح لمؤدبي أبناء أفراد الطبقة العليا<sup>(١)</sup>.

وفيما يتعلق بموظفي الدواوين، فقد كان كبار الموظفين يعيشون معيشة مترفة سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين، ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأنافتهم ويلاحظ ذلك على كتاب السامانيين، فالعبدوني الشاعر ينشد:

أكتب ديوان الرسائل مالكم      تجلتم بل متم بالتجمل<sup>(٢)</sup>

وجدت شريحة القضاة أيضا في الطبقة الوسطى (البورجوازية) لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم المستفيدون من الطبقة العليا أو السلطة السياسية<sup>(٣)</sup>.

وبعد هذا العرض لشرائح طبقة البورجوازية يتضح لنا مدى ارتباط مصالح هذه الطبقة مع السلطة أو الطبقة العليا، ولم نلاحظ ثمة تبايناً في أي من العهود سواء عهد السامانيين أو عهد الغزنويين أو عهد السلاجقة، ولا سيما شريحة كبار التجار والصيارفة والجهابذة الذين أقرضوا الوزراء والسلطين مقابل اطلاق يد هؤلاء في حرية الاتجار وحركة البيع والشراء والتعيين في المناصب الإدارية العامة والوظائف العليا، الأمر الذي أدى إلى تخلي تلك الطبقة عن دورها التاريخي المنوط بها وهو مساندة طبقة العوام في مواجهة ظلم السلطة وجورها، لكن الذي حدث هو اتفاق مصالح البورجوازية مع السلطة وهي مصالح سياسية اقتصادية في المقام الأول، على عكس ما أنجزه تلك الطبقة في العصر السابق قبل وصول العسكر الأتراك إلى سدة الحكم حيث الإصلاحات على جميع المستويات سواء اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية وحتى الثقافية وحتى لو كانت إصلاحات جزئية قام بها الخلفاء العباسيون، مما جعل هناك وعياً طبقياً أسفر عن قيام المعارضين

---

(٥) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٣٧

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٥، ص ٢٨٠؛ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٥٠٢

(٢) شوقي ضيف، نفسه، ص ٥٠٢

والمضطهدين بثورات تطالب بالإصلاح تأسيساً على وقوف البورجوازية بل وقيادة هذه الثورات مثلما حدث مع حركات الشيعة والخوارج والمعتزلة إلى أن جاء عصر نفوذ البدو الأتراك وبدأت البورجوازية تتخلى عن هذا الدور بحثاً عن الثراء والوصول إلى المناصب الهامة في الحكم مستغلين طبيعة الأتراك ونهمهم للمال، أي أنه تم اقتسام الوليمة، الأمر الذي أفضى في النهاية إلى اتساع الفجوة بين البورجوازية والعوام الذين لم يستطيعوا مواجهة قمع الخلافة والدويلات الحارسة لمصالحها في المشرق خصوصاً خراسان، مما أدى إلى انتشار الحركات المتطرفة متخذة مذهب من المذاهب كأيدولوجية صورية للهجوم على الخلافة، مثل الذين قاموا بحركات متخذين المذهب الشيعي الإسماعيلي كستار خارجي يخفى تطرفهم، وانعكس ذلك فيما بعد على الصراع المذهبي الذي سيتم الحديث عنه تفصيلاً في الفصول القادمة فيما بعد.

### طبقة العوام:

تأتي بعد ذلك في نهاية الهرم الاجتماعي، الطبقة العامة من الرعية، التي وصفت في كثير من الأحيان بالسوقة والغوغاء واللصوص، والأراذل، والذين لم يكتب تاريخهم الحقيقي فيما يسمى بالمسكوت عنه بالرغم من نضالهم ضد السلطة العسكرية ومواجهة الظلم والجور، وقد نسجت حولهم حالة من التآمر المعرفي لصالح السلاطين والأمراء، إلا أنه بالرغم من ذلك فهناك بعض من المؤرخين والباحثين المنصفين كشفوا النقاب عن دور طبقة العوام في حركة التاريخ وتأثيرهم الكبير على الحياة الاجتماعية في المشرق الإسلامي.

وتنقسم تلك الطبقة إلى عدة شرائح منها الحرفيون والصناع وأصحاب التجارات الصغيرة والذين يخدمون في قصور السلاطين والأمراء، وشريحة أخرى تمثل الفلاحين والمزارعين الصغار وكانوا أشبه بالأقنان نظراً

لمعاناتهم أشد المعاناة وهذا ما سيأتي تفصيلاً<sup>(١)</sup>.

لكن غلبة النشاط الزراعي الرعوي على الأنشطة الأخرى في خراسان خاصة والمشرق الإسلامي عامة ستجعلنا نركز حديثنا عن شريحة المزارعين والفلاحين الأكثر تضرراً من عسف الطبقة العليا والاستبداد القائم آنذاك من شريحة العسكر الأتراك.

ففي العصر الساماني كانت الطبقة الاجتماعية السفلى بما تضم من فلاحين وأهل المدن يعيشون في ظروف صعبة بسبب الوضع الظالم من الطبقة العليا، حيث أدت الحروب والصراعات الدائمة وفرض الضرائب إلى فقر وسخط العامة من الشعب<sup>(٢)</sup>، ويُذكر أن الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩-٢٩٥ هـ/٨٩٢-٩٠٧ م) قد تمكن من القضاء على عصابات اللصوص- من وجهة نظره- التي كانت تتألف من الفلاحين والمتذمرين بالإضافة أنه عمل على استرضاء النبلاء دون أن يعتمد عليهم<sup>(٣)</sup>.

وبنظرة أكثر تفصيلاً للوضع الاقتصادي الزراعي حيث قلة سقوط الأمطار والتلوج أدى إلى نقص احتياطي الماء في القنوات والآبار واندثرت النظم القديمة لشبكات الري فبالتالي تدهورت أحوال المزارعين<sup>(٤)</sup>، وعلى عكس ما قاله الدوري<sup>(٥)</sup> بأن السامانيين يهتمون بحماية الزراع والفلاحين من إرهاب النبلاء الإقطاعيين، ليضمنوا السلام في البلاد وليوطدوا الحكم.

إلا أننا نرى أنه من الممكن اعتبار هذا الرأي هو في بداية حكم السامانيين لبلاد ما وراء النهر بالفعل ليكونوا لهم قاعدة شعبية ويوطدوا أركان حكمهم، لكن غلبة النظام الإقطاعي هي السائدة فيما بعد ولا سيما بعد

---

(١) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٥٠٤

(٢) عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص ١٩٥

(٣) محمد جمال الدين سرور، انقسام الدول الإسلامية إلى دول مستقلة بالشرق وأثره في تطور الحياة الثقافية والسياسية، ط دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦١ م، ص ١٣

(٤) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص ٩٣

(٥) دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ١٢٤

وصول الغلمان الأتراك إلى المناصب الإدارية العليا وقيادة الجيش في خراسان.

حيث إنه في آخر الحكم الساماني واجه الأمراء السامانيون الخلافات الداخلية واستقلالية الإقطاعيين وعدم المركزية النسبية وزيادة المنظومة الإدارية يوماً بعد يوم وبالتالي زيادة الرواتب والأجور، واكتساب القادة الأتراك سلطة ونفوذ أكبر وكانوا يطلبون من الحكومة السامانية رواتب وحوافز أعلى، ولكي تواجه الحكومة هذه المشكلات رفعت الضرائب، ويصور "أي برتلس" وضع المزارعين العام منذ القرن الرابع الهجري فصاعداً كالتالي، أنه بالرغم من وجود جموع غفيرة من العبيد الأتراك الرحل الذين جاءوا من صحاري آسيا الوسطى وكذلك العبيد الذين وصلوا للقيادة والحكم نتيجة عمليات الزحف العسكري إلى الدول المجاورة (الهند)، فإن عمل العبيد في تلك الفترة لم يكن له دور أساسي في الاقتصاد الزراعي، حيث كان المزارعون هم الشريحة الرئيسية التي يتم الاستفادة منها، لاسيما أن نظام الخراج قد سقط على كاهل الشعب كحمل ثقيل، وطيلة الفترة من القرن الثالث الهجري إلى الخامس الهجري كان القرويون قد فقدوا أراضيهم وخضعوا لأقسام الرق المختلفة، وقيام المزارعين بتسليم صك التعهد لجامع الخراج وتسليم أرضهم في حماية الأقوياء فيما يعرف بنظام الإلجاء، وأخيراً فقدوا حق ملكية الأرض وتحولوا إلى مساهمين يمتلكون فقط البذور والمواشي وأدوات الزراعة وأحياناً قوة عاملة استثناءً، كل هذا كان بمثابة العوامل التي تسببت في ملكية الإقطاعيين لوسائل الإنتاج وتبعية المزارع للملاك.<sup>(١)</sup>

وفي نفس هذا السياق يرى "آ.يو. ياكوبوفسكي" ضمن بحث الوضع الاجتماعي لخراسان في القرن الخامس الهجري، أن إيجار أسهم المزارعين والخراج أهم وسيلة لجمع حصيلة إضافية من يد القرويين لتذهب إلى الأراضي السلطانية وأراضي كبار الملاك، وكان يتعين على المزارعين أن يشاركوا في إنشاء القنوات والطرق وغير

---

(١) مرتضى راوندي، المرجع السابق، جلد بنجم، ص ٨٤

ذلك، علاوة على دفع أنواع الضرائب والرسوم المجحفة، ويسمى هذا النوع من السخرة باسم "الحشر"، وقد أشارت عديد من المصادر في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين بأن الفلاحين في نواحي خراسان كانوا يحملون السلاح معهم<sup>(١)</sup>، فيقول مؤلف تاريخ سيستان: "والأهالي رجال محاربون ومعتادون على ثورة السلاح فهي حرفة الكبير والصغير وهم يتعلمون الحرب والقتال"<sup>(٢)</sup>.

وبمجيء الغزنويين إلى خراسان ازداد الوضع الاجتماعي سوءاً وأصبح أكثر قسوة على الطبقة العامة، ولاسيما أن نتج عن حروب الغزنويين الطويلة مع الدويلات الأخرى، إهمال الزراعة وترك الأرض بوراً على فترات متقطعة من السنة نتيجة هرب السكان إلى مناطق آمنة وخالية من المصادمات المسلحة بين الجيش الغزنوي وقوات السلاجقة، فضلاً عن الضرائب والرسوم الثقيلة التي كانت تفرضها الحكومة الغزنوية بالقوة وغارات الجنود وسلبهم ونهبهم وتوقفهم المستمر وإضافة لذلك عسف جباة الضرائب الذي جعلهم يفرون تاركين الأرض الزراعية<sup>(٣)</sup>.

ويحدثنا العتبي<sup>(٤)</sup> عن القحط الذي وقع بنيسابور عام ٤٠١هـ/١٠١٠م خصوصاً وفي سائر بلاد خراسان عموماً، الذي تسبب في هلاك ما يقرب من مائة ألف مواطن لدرجة أن عجز غسلة الأموات عنهم، وسار الناس في الشوارع ينادون الخبز واشتد الجوع بالناس حتى أن بعضهم يختلس بعضاً من شوارع الطرق إلى الخرابات.

وانعكست تلك الاضطرابات ونتج عن ذلك الفساد أن ساءت الحالة المعيشية في معظم المدن الخراسانية، فارتفعت أسعار السلع والمواد الغذائية

---

(٢) نفسه، نفسه، ص ٨٤، ٥٨.

(٣) مؤلف مجهول، ص ٣٤٥.

(١) محمد حسن العمادي، المرجع السابق، ص ١٦٠؛ بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ط ١. الكويت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٨١؛ مرتضى راوندی، المرجع السابق، ص ٨٥.

(٢) تاريخ اليمينى، ص ٣٢٠، ٣٢٦.

إلى حد أن وصل ثمن الخبز من ثلاثة دراهم إلى ثلاثة عشر درهماً، أما الشعير فلم يكن موجوداً إلا نادراً ما يراه أحد<sup>(١)</sup>.

ويذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> أيضاً في هذا الصدد أنه لما اشتد أمر الأتراك وفسادهم بخراسان، تجمع كثير من العيارين والشطار من أبيورد وطوس واجتمع معهم خلق كثير ونهبوا نيسابور، فأرسل مسعود الغزنوي أمير كرمان\* بثلاثمائة فارس فقاتلهم وأسر أولادهم وأهلهم فأودعهم في السجن وكان ذلك في عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م.

أما عن حالة الفلاحين والمزارعين في العصر السلجوقي، فلم يختلف كثيراً عن مثيلتها في العصر الغزنوي إن لم تكن فاقت الحدود، ولا سيما أن الأتراك بطبيعتهم البدوية الرعوية كان نشاطهم الزراعي هو الأول أو بالأحرى كان اقتصادهم زراعياً رعوياً قائماً على فلاحية الأرض، وبما أن النظام الإقطاعي أصبح هو السائد والذى كرسه السلاطين والأمراء الأتراك، فقد تحول الإقطاع من الإشراف إلى إقطاع عسكري، أي تقطع الأراضي إلى العسكر لضمان ولائهم للحكام ولقمع معارضي السلطة.

كما اختفت الملكيات الحرة للمزارعين الصغار حيث أن معظم الملكيات الخراجية والعشرية ما لبثت أن انطوت في حيازة القادة العسكريين الذين اغتصبوها قسراً، وما تبقى من ملكيات ضئيلة في بعض الأقاليم أُرهِقت بالمغارم من جراء النظام الجبائي القائم على التضمين<sup>(٣)</sup>.

وبالنظر إلى الشريحة الأخرى من طبقة العوام وتمثل الحرفيين والمهنيين لم يختلف حالهم كثيراً إلا أنهم أقل بؤساً نوعاً ما بسبب احتياج الدولة إليهم في

---

(٣) البيهقي، المصدر السابق، ص ٦٧٤، ٦٧١- ٦٧٥؛ بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع حتى ظهور السلاجقة، ط ١. القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٥٩.

(٤) الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢١١.

\* كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. (أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٤، ٤٥٦)

(١) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ٣، ص ٥٤.

كثير من المشروعات العسكرية التوسعية والعمرانية الدينية<sup>(١)</sup>.

إلا أن أحد المؤرخين<sup>(٢)</sup> رصد واقع المعاناة لشريحة الحرفيين والمهنيين في المدن حيث إنهم في قبضة الإقطاعيين وشركات التجارة، بحيث إن عليهم دفع الرسوم والضرائب الكثيرة، وتحدثت المصادر التاريخية عن الضرائب المجحفة التي كانت تؤخذ عنه من الحرفيين والمهنيين في أي مدينة، وفي هذا العصر وجدت اتحادات نقابية في إيران أيضاً مثل سائر دول المشرق الأدنى، وكانت هذه النقابات في الغالب تحت نفوذ شديد وشعبية كبيرة بين الحرفيين حيث إنهم يعارضون سياسة كبار الملاك والإقطاعيين تحت عباءة الدين، لاسيما أن ظهرت فرقة ثورية تسمى "الآخية الفتيان" تجيز قتل الظلمة، وقد كانوا يهتمون بشدة بمساعدة بعضهم البعض وبالتعاون بينهم .

إلا أننا نرى أن تسمية اتحادات نقابية عليها تحفظات نظراً لعدم نشأة هذه التسمية في هذا العصر، من الممكن أن نطلق عليها ضمناً فقط اسم رابطة الحرفيين ولكن تسمية الاتحادات النقابية لم ترد في المصادر الأصلية للتاريخ الإسلامي.

أما بالنسبة للأحوال الاقتصادية للحرفيين فقد واجهوا أزمة كبيرة نظراً لفساد وكساد الزراعة، مما تسبب في تراجع قوة شراء المزارعين وأيضاً رواج المسكوكات قليلة القيمة<sup>(٣)</sup>.

وقد ترتب على هذا الوضع سوء في المعيشة حيث كانت الغالبية العظمى من الشعب تعيش في المنازل المبنية بالطين مع ضيق في الأزمة، ولم يكن الأهالي يلتفتون إلى المسائل الصحية، وكانت زوايا وأركان الأزقة والمعابر الضيقة مكدسة بأنواع القمامة؛ مما تسبب في ظهور الوباء وأنواع الطاعون وسائر الأمراض المعدية<sup>(٤)</sup>، أي أن حياة العامة في العصر السلجوقي بلغت

(٢) نفسه، نفسه، نفس الجزء، ص ١٤٨

(٣) مرتضى راوندی، نفسه، ص ٩٢

(١) مرتضى راوندی، المرجع السابق، ص ٩٣

(٢) نفسه، نفسه، ص ٩٣

التدهور ذروته، الأمر الذي حفزهم على الثورة لكن غلبة واستبداد النزعة العسكرية وقفت حائلاً دون نجاح ثورة العوام<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا الرصد المفصل- إلى حد ما- لطبقات وشرائح المجتمع في عصور السامانيين والغزنويين والسلاجقة، نجد وضع طبقة العوام هو الأسوأ حالاً، بالرغم ما قيل عن اعتدال الوضع الاجتماعي نسبياً في بداية حكم السامانيين إلا أنه كما ذكرنا لتوطيد حكمهم وعمل قاعدة شعبية تحديداً في بلاد ما وراء النهر قبل انتقال حكمهم إلى خراسان، مروراً بمجيء الغزنويين إلى حكم خراسان حيث ترسخت وضعية الفساد والظلم الاجتماعي وقمة الاضطهاد من العسكر الأتراك واستبداد محمود الغزنوي وابنه مسعود، ومعاناة الفلاحين والمزارعين من المصادرة والعسف والإهانة، وصولاً إلى عهد السلاجقة وتكريس نظام الإقطاع العسكري واستمرار مسلسل اضطهاد المزارعين والفلاحين، بالإضافة إلى شريحة الحرفيين والمهنيين بالمدن الذين لاقوا الأمرين من مكوس وفرض ضريبة مضاعفة على صناعتهم الأمر الذي يثبت أنه منذ أواخر القرن الرابع الهجري فصاعداً تخلت الطبقة البورجوازية عن العوام وتكرس الإقطاع وعمت الفوضى في الإدارة والحكم، مما أثر على الوضع السياسي وأيضاً الصراعات المذهبية كما سيتضح فيما بعد.

#### رابعاً : الإقطاع وقوى الإنتاج :

وبما أننا رصدنا في النقاط السابقة معالم الصراعات الاجتماعية والبنية الطبقيّة للمجتمع، فإننا الآن ننتقل إلى الحديث عن مرحلة الإقطاع وقوى الإنتاج في خراسان ؛ لأنه لا يمكن بأي حال رصد معالم أي مجتمع بمنأى عن النشاط الاقتصادي ونظامه السائد آنذاك؛ لأنه بلا شك سيعكس المظهر الخارجي للصراعات الاجتماعية، أي البنية الفوقية للمجتمع ؛ لذلك لابد أن نشير إلى البنية التحتية للمجتمع من مراحل الإقطاع وقوى الإنتاج والعمل الموجود في خراسان.

---

(٣) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص ١٤٨

بداية من المعروف عن الحالة الاجتماعية في العصر العباسي الثاني - كما ذكرنا في بادئ الأمر - أنها أكثر اضمحلالاً بسبب توغل العنصر التركي في قلب الخلافة منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) عندما أتى بهم كعسكر في الجيش، لكن حدثت خطوة بعيدة وخطيرة، فقد جعل عماله على الولايات بعض الأقاليم إقطاعات تمنح لأحد القواد الكبار يتصرف فيها كما يشاء على أن يؤدي للخليفة خراجها، وكان أول ما فعل عامل تركي يدعى "أشناس" في سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م ثم أضاف الوثائق (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م) إليه الجزيرة وبلاد الشام وضربت السكة باسمه<sup>(١)</sup>.

فتحول الإقطاع هنا من إقطاع منفعة إلى إقطاع رقبة أي إقطاع تملك للأتراك فيما بعد فأخذوا يستبدون بالأمور، مما تسبب في ضعف الخلافة العباسية وتوزيع أراضيها وانحصر حكمهم في بغداد فقط.

وكما سبق أن أشرنا إلى شريحة الإقطاعيين المنتمين إلى طبقة الأرستقراطية حيث كان الأمراء يغدقون الأراضي الواسعة على الحواشي من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم، حيث يشير المقدسي في القرن الرابع الهجري إن أكثر الضياع بفارس مقطعة<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة للوضع في عهد السامانيين حيث الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للشعب سيئة، ولاسيما في أواخر عهدها حدث التفكك السياسي والإداري عندما قرروا الاعتماد على العسكر الأتراك في الجيش، ولكي يكسب الأمراء تأييدهم ورضاهم اضطروا لإعطائهم بعض الأملاك والتي عرفت باسم الإقطاع، وكان تحصيل الأرض يفوض أحياناً للجنود، ومن ثم يحدث خلل في أمور الزراعة، فقد كان "ألبتكين" الحاجب التركي في بلاط

---

(١) جوزجاني، طبقات ناصري، تحقيق: عبد الحي حبيب، ط. كابل (أفغانستان)-جانب دوم ١٣٤٢ش، ص ١١٥؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: إبراهيم صالح، ط. ٢. دار صادر - بيروت ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٤٠٠ عبادة كحيلة، العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ط ١ دار الكتاب الحديث الكويت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص ٢٢٨

(١) أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠؛ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٥٠٣

نوح بن منصور (٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م) الساماني صاحب ٥٠٠ قرية في خراسان وما وراء النهر وله في كل مدينة قصر وحديقة ومنزل قوافل<sup>(١)</sup>. وبالمثل كان الوضع في العصر الغزنوي لدرجة أن تحصيل الضرائب على يد الجنود والعسكر الذين يبتلعون الضرائب التي كان من المفترض أن توضع في الخزانة العامة، وذلك تحت اسم المقطع، ولم تكن لهم علاقة دائمة بالأرض وكل اهتمامهم في الغالب الحصول على أكبر فائدة من الأرض التي كانت تحت تصرفهم<sup>(٢)</sup>.

فقد أدى هذا النظام إلى ظهور ما يسمى بالإلجاء - التضمين - الإيغار، ثلاث ظواهر هي السمات الأساسية للنظام الإقطاعي " فالإلجاء " يعنى : أن يلجئ الرجل أرضه إلى أمير أو قوى يحتمي به فيكتب باسمه ويقوم هو بدفع خراجها، وفي الغالب تؤول إليه في النهاية ملكيتها، أما " التضمين " : هو أن يجعل شخص كفيلاً بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وهو ما عرف أيضاً بنظام "الالتزام" أو القبالة، أما عن ثالث سمة للنظام الإقطاعي هو " الإيغار " : وهو أن يوغر الحاكم أو السلطان الأرض للرجل فيجعلها له من غير خراج أو هو يؤدي الخراج إلى السلطان فراراً من العمال<sup>(٣)</sup>.

ومما ترتب على ظهور هذه السمات أن تقلصت الرقعة الزراعية، وما كان يزرع منها بالفعل اقتصر على الضياع السلطانية وإقطاعات الجند التي كانت تنتج بالأساس محاصيل زراعية بعينها يحتكرها السلاطين ويضاعفون أسعارها خصوصاً في أوقات الأزمات والحوادث<sup>(٤)</sup>.

لقد ارتكزت العلاقة بين أصحاب الأرض والفلاحين على نظام السخرة، إذ اعتبروا عبيداً، أما الأراضي الخراجية - وهى محدودة - فقد أثقلت

---

(٢) مرتضى راوندی، المرجع السابق، ص ٨٣

(٣) مرتضى راوندی، نفسه، ص ٨٤

(١) محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص ٢٥٨-٢٥٩

(٢) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص ٨٠

بالمغارم إلى حد أن أصحابها كانوا يتركونها غنيمة للسلطان أو العسكر، ولعل هذا يفسر لماذا كان سدس مساحة الأرض الزراعية في عهد الغزنويين مستغلاً بينما ترك الباقي دون زراعة<sup>(١)</sup>، ويرجع هذا البوار إلى إهمال مشروعات الري والسقاية والصيانة بالدرجة الأولى، إذ كان السلاطين يعتبرون الموارد المائية ملكاً خاصاً لهم<sup>(٢)</sup>.

فلما أفضت السلطة إلى السلاجقة جعلوا نظام الإقطاع إقطاعاً عاماً، أي جعل البلاد كلها إقطاعاً للأفراد والجنود<sup>(٣)</sup>، فقد تم توزيع البلاد بين أفراد الأسرة الحاكمة، وبالفعل بدأ السلطان طغرل بك بتطبيق هذا النظام على أفراد أسرته منذ سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م عندما منح لأخيه (جغري بك داود) إقطاعاً من نهر جيحون إلى نيسابور، ولأخيه من أمه (إبراهيم ينال) قوهستان وجرجان، ولابن عمه (ابن علي الحسن موسى بن سلجوق) هرات وبوشنج وسجستان وبلاد الغور<sup>(٤)</sup>.

وقد أورد الأصفهاني<sup>(٥)</sup> رسالة قد بعث بها طغرل بك وزيره عميد الملك الكندري قائلاً: "بأن يقبض الإقطاعات ولا يترك للخليفة القائم بأمر الله قديماً". يتضح من تلك الرسالة مدى سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية المتردية والوهنة وأيضاً مدى تكريس الإقطاع العام بصيغته الجديدة.

لاسيما أن الخلافة العباسية بالطبع تدين بالمذهب السني الحنفي، فكان لابد وأن تأخذ الدولة السلجوقية الصبغة الدينية لتؤكد شرعيتها، حتى لو كان شكلياً، ففي هذا السياق قد أفتى الإمام أبو حنيفة النعمان بجواز تأجير الأرض الخراجية لأحد المواطنين خلفاً لمواطن آخر عجز عن زراعتها وأداء

(٣) أشتور، المرجع السابق، ص ٣٣٩، ٣٣٦، ٤٠٢

(٤) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص ٨١

(٥) جرحى زيدان، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٧

(٦) الاصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. الموسوعات - مصر ١٩٠٠م، ص ١٨؛ منى محمد بدر، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية، ط ١ مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ١٠٦

(٧) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٠

خراجها بشرط أن تكون هذه الأرض حق انتفاع وليس ملكية رقبة، وللإمام الحق في تأجيرها وأخذ خراجها من أجرتها<sup>(١)</sup>.

لكن بالطبع تم استغلال تلك الفتوى -عن طريق فقهاء السلطة الأحناف- بشكل يميل لمصالح الحكومة والإقطاعيين من السلاطين والأمراء السلاجقة ومن قبلهم الخلافة العباسية، لكون الإمام أبو حنيفة أجاز للحاكم أن يأخذ خراجها، فعملوا على تحويلها إلى إقطاع رقبة وليس إقطاع منفعة، فضلاً عن أنهم أخذوا خراج الأرض المقطعة كإقطاع انتفاع لأنفسهم؛ مما نتج عنه في النهاية فساد وتدهور الزراعة وهروب الفلاحين من الأراضي.

وتبرز هنا ملاحظة آشور<sup>(٢)</sup> الذكية حين فطن إلى ارتباط السلطة السلجوقية بشريحة الفقهاء قائلاً: " فمنذ بداية بروز السلاجقة كمؤيدين للسنة والخلافة العباسية، فقد أقاموا حلفاً بين الخليفة والسلطان التركي طغرل بك الذي مثل شريحتين الفقهاء المحليين والضباط الأتراك، وقامت الدولة السلجوقية على التعاون بين هاتين الشريحتين ". أي من الواضح أن فقهاء السلطة يبررون مشروعية ظلم الحاكم وجوره عن طريق إصدار الفتاوى لصالح ما يملكه السلطان ولاسيما أنهم على المذهب الحنفي، لكنهم في الحقيقة هم أبعد ما يكون عن تعاليم المذهب الحنفي، بالإضافة إلى أن الفقهاء حازوا الإنعامات والإقطاعات مقابل مساندة السلطة وتولى مناصب القضاء والتشريع، مما نتج عنه مساهمة الفقهاء في تكريس الإقطاع بصيغته الجديدة.

أما الآن ننتقل إلى الحديث عن قوى الإنتاج أي قوى الاقتصاد ومدى تنوعه وتأثره بالنظام السائد أي الإقطاع، فلا نستطيع أن نفصل بين الحياة الاجتماعية والأنشطة التي يمارسها السكان سواء زارعي أو تجاري أو صناعي.

---

(١) تقي الدين الغزي المصري الحنفي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح الحلوطي، القاهرة ١٩٧٠م، ج ١ ص ١٤٠

(٢) التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص ٢٧٣

منذ مجيء السامانيين إلى خراسان واستقلالهم فيها بجانب إقليم ما وراء النهر حاولوا أن يستفيدوا من الأراضي الزراعية الموجودة ذات المساحات الواسعة، بحيث تم إنشاء القنوات ومصارف الري<sup>(١)</sup>، فقد قدم لنا جغرافيو القرن الرابع الهجري خاصة الاصطخري<sup>(٢)</sup> معلومات وافيه عن الجغرافيا الاقتصادية في خراسان وما وراء النهر، وتبين من هذه المعلومات أن القوى الإنتاجية في بداية عهد السامانيين قد تقدمت نوعاً ما من حيث الأعمال في مجال الري وبالتالي أصبحت هناك مساحة كبيرة من الأرض المزروعة، فضلاً عن تقدم في إنشاء القنوات لدرجة أنهم يوصلون المياه عن طريق القناة إلى مسافة خمسة أيام في الطريق (١٢٥ كم) توسع استعمال كل أنواع الري عن طريق الجداول والأنهار الفرعية المتفرعة من النهر والقنوات والآبار، وأنشئت السدود والسدود المتحركة والمصارف الخاصة لجريان المياه أثناء حدوث الفيضان<sup>(٣)</sup>.

وفي ذلك العصر استخدمت أنواع عديدة من عجلات الآبار بجانب التوسع في زراعة المحاصيل القديمة وشاعت زراعة الأنواع الجديدة وتوسعت بصفة خاصة زراعة الأرز والتي لم تكن موجودة تقريباً في عهد الساسانيين، وفي تلك الفترة كان الأرز يزرع في خراسان، وقد شاعت الزراعات الجديدة مثل الموالح في المناطق المنخفضة في جنوب إيران<sup>(٤)</sup>.

وقد ساعد السامانيون على ذلك أنهم كانوا دائمي الإغارة على مناطق الزراعة الإستبسية الخضراء، مثلما حدث عام ٢٧٨ هـ / ٨٩٣ م عندما فتحوا مدينة طراز<sup>(\*)</sup> والتي اتسعت تجارتها بشكل كبير<sup>(١)</sup>. الأمر الذي فتح آفاقاً

(١) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص ٨٦، ٨٧

(٢) المسالك والممالك، ص ٢٦٨ وما بعدها

(٣) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص ٨٧

(٤) نفسه، نفسه، ص ٨٧

(\*) طراز : هي الاسم العربي لتالاس (Talas) وهو نهر في آسيا الوسطى ويطلق الاسم على المدينة القائمة عليه، ولعلها كانت قرب مدينة (أوليا أنا الحديثة) وطراز مدينة تجارية لم يدخل الإسلام فيها إلا على يد السامانيين إثر حملة الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م، وكانت طراز في عهد السامانيين مركزاً تجارياً هاماً على حدود أراضي المسلمين والترك فيما وراء النهر . )

جديدة أو نمطاً آخر غير الزراعة ألا وهو الاقتصاد التجاري.

فبعد انسلاخ الأقاليم في المشرق عن الخلافة العباسية أصبحت هناك قيود كبيرة على التجارة الحرة على عكس ما كان موجوداً في ظل العصر العباسي الأول الذي لم يفرض فيه المكوس الداخلية على البضائع التي تنقل من ولاية إلى أخرى، أما الآن فرض كثير من الجمارك والمكوس الثقيلة، فأدى ذلك إلى تعطيل للنشاط التجاري، مما أثر على صغار التجار بالسلب فانعكس تلقائياً على أسعار السلع، ليس هذا فحسب بل إن الحكام في الأمصار كانوا يرغبون في زيادة دخل حكوماتهم فيرهبون الأهالي بأنواع من المغارم والجبایات لم تكن معروفة في أيام العصر العباسي الأول .

فقد كانت هناك طرق التجارة الخارجية المتصلة بالملاحة البحرية فيما تسمى بتجارة العبور، نظراً للجغرافيا الطبيعية المدهشة التي منحت إقليم خراسان وما وراء النهر مكسباً كبيراً، حيث نهر جيحون نهر صالح للملاحة تجري فيه السفن حتى الساحل الجنوبي لبحيرة خوارزم، وكذلك نهر سيحون صالح لنقل البضائع طوال العام<sup>(٢)</sup>.

أما أهم الطرق التجارية الخارجية فقد تمثلت في الطريق التجاري بين بلاد الروس والمشرق ويبدأ من شمال روسيا عبر بحر قزوين ويسير في بلاد فارس حتى مرو ثم بخارى وسمرقند في بلاد ما وراء النهر حتى يصل إلى الصين ويحمل التجار معهم جلود الحيوانات والسيوف والعسل، كذلك يوجد طريق من نهر السند إلى بلاد فارس عبر سجستان ثم إلى كابل وغزنة ثم يتجه نحو خراسان ومنها إلى بخارى<sup>(٣)</sup>.

---

انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٧٤؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج١٥، ص١٢٠. مادة طراز .

(١) عبد الفتاح السرنجاوي، الخلافة العباسية (النزعات الاستقلالية)، ص٣٩

(٢) محمد أحمد جودة، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد ما وراء النهر من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة السامانية (رسالة دكتوراه)، ص١٤٠

(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص٢٧٦؛ محمد أحمد جودة، المرجع السابق، ص١٤٣

إن الموقع الجغرافي لبلاد ما وراء النهر المتمثل في وقوعها على طريق التجارة العالمي بين الشرق والغرب وهو المعروف باسم طريق الحرير، قد جعلها هدفاً للسيطرة من قبل الدويلات التي قامت في غربها بهدف الاستفادة من النشاط الاقتصادي الضخم والمكاسب المادية الوفيرة من وراء طريق القوافل التجارية المارة بطريق الحرير، كذلك وفرة مصادر المياه وتنوعها جعلها فريسة لأطماع القوى السياسية المحيطة بها<sup>(١)</sup>.

لعل هذا يفسر الصراع بين السامانيين والأتراك القراخانيين الشرقيين في أواخر عهد السامانيين لمحاولة السيطرة على تلك الطرق، بجانب دخول الغزنويين طرفاً في هذا الصراع والذي أفضى بالفعل إلى إقصاء السامانيين عن ما وراء النهر ومجيء القراخانيين، وقدم الغزنويين إلى خراسان والسيطرة على تجارة العبور.

فضلاً عن مناطق التبادل التجاري شرقي آسيا والهند، وأهم صادراتها التوابل والعطور والخشب والأحجار الكريمة والسيوف<sup>(٢)</sup> مما جعل الغزنويين يحكمون السيطرة عليها.

ومن ضمن أنواع التجارة كان هناك نوع خاص من تجارة العبيد وهو شراء وبيع الغلمان والشبان الأتراك الذين كانوا يباعون من أجل الخدمة في فرق الفرسان، وحظيت هذه التجارة بمراقبة الحكومة، حيث أجبر التجار على عرض الغلمان أولاً على الحكومة لبيعهم<sup>(٣)</sup>، ولعل هذا يفسر قيام مسعود الغزنوي بغارات متلاحقة على إقليم الغور لاشتهاره بالعبيد والغلمان.

مما سبق يتضح مدى تباين قوى الإنتاج ما بين الاقتصاد الزراعي-الرعي الذي ارتبط بالبداءة التركية (الغزنويين - السلاجقة) والتجارة، لكن بسبب الحروب والصراعات المستمرة للحكومات السامانية والغزنوية

(٢) محمد جوده، نفس المرجع، ص ٢٢٩

(٣) المقدسي، نفس المصدر، ص ٢٧٧؛ شوقي عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، ط المجلس الوطني للأدب . الكويت ١٩٩٠ م، ص ٢٠٧

(٤) المقدسي، نفسه، ص ٢٦٠؛ مرتضى راوندی، نفسه، ص ٩٢

والسلجوقية- سواء حروب إقطاعية بين الأمراء الإقطاعيين أو صراعات سياسية خارجية- تقلصت وفسدت الأراضي الزراعية وأصبح النمط الاقتصادي الزراعي هش لا يستفيد منه سواء النبلاء والأمراء فقط.

وبكساد الزراعة كسدت أيضاً التجارة بالرغم من طرق التجارة والجغرافيا الطبيعية المميزة الموجودة بسبب التطاحن والصراع القائم بين السلطات والحكومات، بل وصل الأمر لمصادرة الأمراء لكبار التجار وفرض مكوس وضرائب إضافية تسببت في ارتفاع الأسعار، مما انعكس على ارتفاع أسعار خامات الصناعة واقتصرت الصناعة على الكماليات والرفاهية دون السلع الأساسية.

كما حدث في عهد السلاجقة فقد حدث تقدم في مجال التعمير والنهوض بالصناعات المعدنية وصناعة السجاد والنسيج خاصة في صناعة الأطباق الخزفية والفخارية<sup>(١)</sup>، فضلاً عن الحلي والمسكوكات.

حتى أن مجال التعمير الذي تقدم فيه السلاجقة كان لخدمة أغراضهم إما عسكرية أو عمائر دينية للمتصوفة - كما سيأتي ذكره في موضعه- لتكريس طرق الدروشة والهروبية والبعد عن الواقع ولكسب ود الجهلاء من العامة.

بل إن الطبقة الوسطى قد كان بها فروق في عهد السلاجقة، حيث إن نظام الإقطاع العام قد زاد الفرق بين شرائح تلك الطبقة، فأصبح في خراسان شريحة صغيرة من التجار أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة وعلى النقيض تجار مصرفيون أغنياء أصبحوا وكلاء وزراء ذوي صلة بالسلطة الحاكمة<sup>(٢)</sup>، الأمر الذي أثر تأثيراً كبيراً على كساد التجارة والصناعة ؛ لأنه نشأ نظام احتكار سلع بعينها وفي ظل نظام الاحتكار فقد كثير من صغار التجار تجارتهم بجانب تضخم في قيمة العملة أصاب الأسواق بالركود.

قصارى القول بعد هذا الرصد الدقيق والمفصل - إلى حد ما - لمعالم قوى الإنتاج في خراسان في ظل النظام الإقطاعي على مدى العهود الثلاث السامانية

---

(١) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص ٩٢

(٢) آشتور، المرجع السابق، ص ٢٧٧

والغزنوية والسلجوقية، وضح مدى تكريس الفساد وكساد الإنتاج بصوره المتعددة الأمر الذي جعلنا نقول بأن عصري الغزنويين والسلجوقية على الأخص هما عصر الفساد والتدهور الاجتماعي والاقتصادي بجميع صوره، بينما نري أن العصر الساماني هو أقل العصور الثلاث فساداً حيث شهد إصلاحات على الصعيد التجاري والزراعي في بداية عهده بعض الأمراء العادلين نوعاً ما مثل الأمير إسماعيل ابن أحمد أيضاً مما انعكس على الحالة السياسية والصراعات المذهبية.